وغابت الشمس ولم يظهر القمر

إحسان عبد القدوس

مكتبة غريب

قد تقف المعــارك بين الأعداء ..

ولكنها لا تقف أبــدا بين الحلفاء ..

احسان

(١)

جلس رفعت البيومى على مقعد وثير فى شقته الرائعة بالعمارة الفخمة المطلة على النيل فى انتظار أن يقدموا له الشاى .. شاى الساعة الخامسة .. إنه منذ سنوات طويله تعود على شاى الساعة الخامسة حتى أصبح يربط كل مواعيد عمله بشاى الساعة الخامسة .. إن بريطانيا أقامت كل مجدها وكل عظمتها وكل تقدمها الفكرى على أساس تقديس تناول شاى الساعة الخامسة .. لاشك أن تناول الشاى وفى هذا الموعد بالذات ينشط العبقرية ويهبها موهبة البحث عن العظمة .. ولو أنه بدأ طريق العظمة من قبل أن يتعود على شاى الساعة الخامسة ..

وابتسم رفعت البيومى ابتسامة صغيره ترسم صورة عظمته وهو ينظر إلى الخادم يدخل إليه حاملا معدات الشاى .. إنه ليس خادما..

إنه رجل مهيب محترم يلبس بدلة كاملة رسميه فوق قميص أبيض منشى ومعه رباط عنق أسود معلق حول عنقه .. إنه « بتلر » كما يسميه الانجليز وليس فى اللغة العربيه كلمة تعبر عن صفة البتلر لأن العرب لم يعرفوا فى كل تاريخهم نظام البتلرات .. إنه الرجل الذى يعتبر مسئولا عن خدمة اللورد الانجليزى .. أو خدمة أصحاب السيادة على الشعب الانجليزى .. وهو قد وصل فى عظمته الى مرتبة اللورد .. بل إن أصدقائه الانجليز عندما يأتون لزيارته يذهلون بكل التقاليد وإجراءات الخدمه التى وضعها داخل بيته .. ويذهلون أكثر وهم يطوفون بعيونهم على قطع الأثاث والتحف المنثورة واللوحات المعلقه .. إنه بيت أفخم وأروع من بيت أى لورد انجليزى. لقد دخل هو شخصيا بيوت كثير من اللوردات وتعمد أن يكون بيته أفخم من أى بيت دخله .. صحيح أنه تأثر بالذوق الانجليزى ولكنه لاشك قد ارتقى حتى بالذوق الانجليزى ..

وانحنى « البتلر » يرتب أمامه معدات الشاى ثم صب له فى الفنجان وانحنى انحناءة كبيرة وانسحب متقهقرا بظهره من أمامه والبيومى يودعه هامسا كأنه لا يهمه أن يسمعه :

— متشكر يا جلال ..

ورفع فنجان الشاى إلى شفتيه ثم مد أصابعه إلى العلبة الخشبية التى أمامه وكأنها تحفة وأخرج سيجارا طويلا .. إنه سيجار هافانا

ماركة منت كريستو .. إن ثمن هذا السيجار فى مصر الآن خمسة جنيهات .. السيجار الواحد بخمسة جنيهات .. من كان يصدق أنه سيصل إلى اليوم الذى يستطيع فيه أن يحرق خمسة جنيهات بين أصابعه وينفثها دخانا .. ولكنه لم يبدأ بتدخين السيجار .. لقد بدأ أولا بتدخين « البايب » .. كان البايب هو الذى يرمز إلى الشخصية الانجليزيه وعظمتها التى يطمع فى الوصول اليها .. ولكنه لم يتحمل تدخين البايب طويلا فانتقل الى تدخين السيجار .. وكان قد اكتشف أنه حتى اللوردات الانجليز يدخنون السيجار فى المجتمعات العامة إظهارا لعظمتهم وأرستقراطيتهم .. إن « البايب » بالنسبة لهم تدخين شعبى أما السيجار فهو خاص بأفواه العظماء .. وهو قد وصل منذ زمن بعيد إلى مرتبة العظماء ..

وعاد بين رشفات الشاى ودخان السيجار يتذكر المعركة الجديدة التى يخوضها .. ويبتسم ساخرا .. إن حياته كلها معارك منذ أن كان لاشىء .. منذ أن كان صبيا مجهولا غلبانا ابن المزارع المتواضع عباس أحمد عباس البيومى .. لقد اختصر اسمه بعد أن بدأ يعتمد على نفسه .. وأصبح رفعت البيومى فقط .. وقد أثبت منذ صباه أن قيمة الإنسان لاتقاس بأصله وفصله ولكن تقاس بذكائه . الذكاء وحده .. ولذلك قد تجد أولاد عظماء يصبحون نكرات .. لاشىء .. لأنهم ليسوا أذكياء .. وأولاد من طبقة عادية ومن أهالى مجهولين يصبحون كل شىء ويصلون إلى القمه لأنهم أذكياء ..

والذكاء لايورث .. إن ماوصل إليه بذكائه لم يستطع أبوه أن يصل إليه .. لا .. لاشك أن بذور الذكاء تورث وإن كانت تختلف فى نسبة نضوج هذه البذور .. فقد كان أبوه فى حياته وفى عمله هو الذى أوحى إليه بالطريق الذى اختطه لنفسه ..

وعلت شفتيه الرفيعتين الواسعتين ابتسامة هادئة ورفع أصابعه يهرش فى شعر رأسه الأكرت وهى العادة التى لم يستطع أن يتخلص منها .. وعاش فى ذكرياته .. وهى عادته كلما خلا لنفسه .. يتذكر وهو فخور بما يتذكره .. ولكنها ذكريات لاتتردد إلا بينه وبين نفسه ، ولايسمح لأحد آخر أن يرددها معه أو يذكره بها، بل إنه يبدو كأنه ألغاها وحرمها على الناس وجعل كل فقرة منها كأنها سر الأسرار .. ولكنه يتمتع بها وحده كلما خلا لنفسه .. ويراجعها فخوراً بنفسه كأنه يستعرض فيلما سينمائيا يروى قصة حياته .. لا .. قصة ذكائه .. فحياته كلها تنحصر فى ذكائه ..

لقد ولد فى أوائل العشرينات .. أى منذ أكثر من ستين عاما .. وولد فى قرية كفر البطيخ .. وكان والده يملك خمسة أفدنة هناك ويزرعها بالبطيخ فعلا .. ولاشك أن والده كان مزارعا فالحا استطاع أن يكسب من زراعة البطيخ حتى أنه انتقل بالعائلة فى منتصف الثلاثينات إلى القاهرة لكى يوفر لأولاده دخول المدارس الابتدائية ويوفر لنفسه احتياجات لاتتوفر له فى كفر البطيخ .. واستأجر بيتا فقيرا فى إحدى حوارى الدراسة .. وألحق ابنه رفعت

فى مدرسة السلحدار الابتدائية .. إن رفعت له خمسة إخوة .. ولدين وثلاث بنات .. ولكن كل إخوته ليس لهم أثر فى حياته .. إنهم حتى الآن يعيشون على مايمدهم به بفضل غناه ونفوذه .. هو وحده الذى ينفرد ويمتاز عنهم بكل ما وصل إليه .. إن بذور الذكاء لم تنضج فى عقولهم كما نضجت فى عقله ..

وقد بدأ وعى رفعت يتفتح منذ وصل إلى القاهرة .. إن القاهرة شىء آخر غير كفر البطيخ .. كل هذا ليس فى كفر البطيخ .. ودفعه طموحه وهو لايزال فى صباه إلى أن يخرج بنفسه من حى الدراسة .. ويحاول أن يكتشف القاهرة .. إنه عالم كبير .. كبير .. كيف يعيش فى هذا العالم معتمدا على مسئولية أبيه عنه وبما ينفقه عليه حتى لو كان أبوه يعتبر من أغنياء كفر البطيخ أو على الأقل من المستورين الذين استطاعوا أن ينتقلوا بعائلاتهم إلى القاهرة. إلى الحى الفقير من القاهرة .. ربما كان الطريق الوحيد أمامه هو أن يستمر فى دراسته إلى أن يصبح شيئا غير أبيه .. مهندسا .. طبيبا .. ضابطا من ضباط الجيش .. إنه يومها يستطيع أن يصل إلى أرقى مما وصل به إليه أبوه .. وسيكون مهندسا .. لا .. طبيبا .. لا .. ضابطا .. ولكن متى يمكن أن يحقق ذلك من خلال دراسته فى المدارس وبعدأن يحقق حلم العائلة كلها بأن يدخل أحد أفرادها إلى الجامعة :. لن يصل إلا بعد عشر سنوات .. أكثر .. وربما خمسة

عشر عاما .. وحتى بعد خمسة عشر عاما هل يمكن أن يكون شيئا .. من يدرى .. لعله لن يصل أبدا ..

وهو فى الوقت نفسه يحب أباه ويقدره ويحاول دائما أن يكتشف كيف يعمل وكيف يكافح لزراعة البطيخ حتى استطاع أن ينتقل بهم إلى القاهرة .. وقد اكتشف أن أباه لاشك يعتبر خبيرا فى زراعة البطيخ .. حتى أنه لو كان فى بلد متقدم لاستعين به لزراعة بطيخ مصر كلها .. لم يكتشف ذلك وهو صغير ولكنه كلام كان يقوله لنفسه بعد أن كبر .. ولكنه اكتشف أيضاً أن البطيخ يشغل كل حياة والده .. إنه يبذر البذور ثم يترك عددا من الفلاحين ينفذون أوامره ومعظم نشاطه يبذله بعيدا عن الحقل .. إنه صديق العمدة حتى لايكاد يفارقه .. وهو أيضا صديق لمأمور المركز .. حتى أنه أسماه رفعت تيمنا باسم مأمور المركز فى فترة ولادته .. بل إنه عرف أن والده وصل إلى المديرية وقابل المحافظ أكثر من مرة .. وكان والده يتفاخر بصداقته لكل هؤلاء .. صداقة الحكومة .. وربما كانت قيمته بين كل أهل البلد يستمدها من هذه الصداقات .. وكان رفعت منذ طفولته وهو جرىء فى تبادل الحديث مع أبيه .. وكان أبوه يميل اليه أكثر من إخوته فرحا بجرأته وبأنه دونهم لايكف عن الكلام .. ويستطيع أن يتحدث طويلا إذا قرر الكلام ويصمت طويلا إذا قرر الصمت .. وكان أبوه يتحدث مزهوا عن زيارته للمديرية عندما سأله رفعت :

ـ والبطيخ يا أبى ؟!

وقال أبوه ضاحكا :

ـ البطيخ يابنى لايعطى الخير الا إذا كان مستندا على ظهر الحكومة .. الأرض ليس لها قوة الا قوة الحكومة ..

وتعلم رفعت أن أباه لايكسب من زراعة البطيخ الا مستندا على صداقة الحكام .. بل إنه عرف فيما بعد أن الخمسة أفدنة التى يملكها أبوه كانت ثلاثة فقط واستطاع بصداقاته أن يضم اليها فدانين مما أثار عليه أهل البلد ولكنها ثورة لم تنزع شبرا واحدا من الفدانين وما لبثت أن خمدت .. وقد اكتشف رفعت أن أهل البلد لايحبون أباه وان كانوا يخافونه ولايملكون الا التظاهر باحترامه .. حتى أصدقاؤه من العيال الصغار فى البلده كانوا أحيانا كثيرة يتجمعون فى لهوهم ضده ثم لايلبثون أن يهربوا منه وكأنه ابن العمدة ..

ولكن صداقات أبيه للحكومة فى كفر البطيخ لاتساوى شيئا فى القاهرة.. لا أحد يحس به هنا .. لافى الحارة ولا فى المدرسة .. إن معه فى المدرسة طالبا يقولون أنه ابن رئيس الديوان الملكى .. ان مدرسة السلحدار رغم أنها مقامة فى حى شعبى الا أنه كان من المعروف عنها أنها مدرسة حاسمة لذلك كان بعض العظماء يرسلون اليها ابناءهم .. وحضرة الناظر يسأل عن ابن ناظر الخاصة ويستدعيه إلى مكتبه كل يوم .. وكل المدرسين يحادثونه فى رقة وتدليل رغم

ما كان معروفا من غلظه وقسوة فى ضرب التلاميذ .. لم تمتد يد أبدا على ابن ناظر الخاصة .. حتى الطلبة كانوا ينظرون اليه من بعيد كأنه من عالم محرم عليهم، ويطيرون بالسعادة إذا أقدم مرة ليلعب معهم فى حوش المدرسة .. وان كانوا من ورائه يسخرون منه ويطلقون عليه شتائمهم .. وكان معه طالب آخر قيل أنه ابن وزير .. إنه يلاقى نفس الرعايه والحب من حضرة الناظر والمدرسين وإن كان هذا الطالب أقل تكبرا من ابن رئيس الديوان، والناظر والمدرسين أقل تدليلا له .. وهو .. رفعت .. إنه لايساوى شيئا ولا أبوه يساوى شيئا .. ويجب أن يكون شيئا أكبر من ابن ناظر الخاصه وابن الوزير .. مهما يحاول أن يفعل كأبيه ويصادقهما باعتبارهما من أبناء السلطه .. أبناء الحكومة .. بل كان يكرهما ويحقد عليهما وتدفعه أحلامه لأن يكون أهم منهما وأعظم ..

ودفعته أحلامه وهو لايزال فى المدرسة الابتدائية إلى إدمان قراءة الصحف .. وكان يجد دائما طريقاً للحصول عليها .. وكان يقرأ كأنه يبحث عن شيء .. يبحث عن القوة التى يستطيع أن يستند عليها حتى يصل إلى أكثر مما وصل اليه أبوه باستناده على قوة الحكومة .. وكان فى الوقت نفسه قد استطاع التقرب من شبان حى الدراسة الأكبر منه وكان يجلس بجانبهم يستمع إلى أحاديثهم السياسية وإلى أسرار التنظيمات التى يعدونها للقيام بمظاهرات ضد الإنجليز ..

وعقله لايكف عن التفكير فى البحث عن الطريق الذى يؤدى به إلى الاستناد على القوة .. إنه ليس مقتنعا بالاستناد على قوة الحكومة .. ان الاستناد على قوة العمدة والمأمور والمحافظ يكفى إذا كان يقيم فى كفر البطيخ .. ولكن الاعتماد على الحكومة وهو فى القاهرة صعب .. لايمكن أن تكون له قيمه بالنسبة للحكومة الا إذا كان من أبناء الحكام .. حتى الاعتماد على القصر الملكى .. لايمكن أن يحقق له طريقا سهلا .. وهو لايدرى كيف يصل إلى القصر .. ولكن ما هى القوة الحقيقية فى مصر .. ما هى القوة التى تحكم ويستطيع أن يحكم معها إذا وصل اليها .. إنها قوة الانجليز .. أن كل الناس تكره الإنجليز ويثورون ضدهم .. ولكن ربما كان هذا يجعل الطريق سهلا أمامه للتقرب اليهم والاعتماد على قوتهم إذا استطاع أن يكسب ثقتهم ..

وظل هذا الرأى يتمكن منه دون أن يفصح عنه لأحد ولاحتى لأبيه . بل إنه كان يتعمد أن يدارى هذا الرأى بأن يتقرب أكثر إلى شبان حى الدراسة الثوار ، واستطاع معهم أن يتقرب إلى عدد كبير من تنظيمات الثوار بل إنه ذهب إلى بيت الأمة بين المتظاهرين.

إلى أن حصل على الشهادة الابتدائية ..

إنه لايريد أن يكمل التعليم العادى .. لايريد أن يدخل المدرسة الثانوية .. ولا الجامعة بعد عمر طويل .. لقد قرر أن هذا الطريق

لن يؤدى به إلى شيء من أحلامه .. ولايستطيع أن ينتظر عشر سنوات أو خمس عشرة سنة حتى يصل أو لايصل .. وحتى وصول فلن يكون أكثر من موظف بين مئات الموظفين وإن كان سيعتبر موظفا محترما ..

وكان أبوه حائرا فيه بعد أن نال الابتدائية .. هل يسعى لتعيينه موظفا فى المديرية .. لا شك أن المحافظ لن يخيب أمله وسيعين ابنه.. وهو بذلك سيصبح نسيبا للحكومة وله ابن فيها .. ولكن أحاسيس الأب تجعله يقبل أن يتحمل عبء ابنه أكثر وينفق عليه حتى يتم تعليمه الثانوى .. إنه يستطيع بشهادة البكالوريا أن يضعه فى وظيفة أكبر .. ولكنه فوجيء بابنه رفعت يرفض الالتحاق بمدرسة ثانوية ويقول أنه سيلتحق بالمعهد البريطانى ليتعلم اللغة الانجليزيه ..

وصاح الأب فى دهشة :

– ماذا تفعل باللغة الإنجلزيه يا ابنى ؟

وقال رفعت فى إصرار :

– إن اللغة الانجليزيه تفعل كل شيء .. لو زرعنا البطيخ باللغة الانجليزيه لكنا الآن سادة البلد ..

وانطلق رفعت يتكلم طويلا كعادته عندما تدفعه مصلحة إلى الكلام .. إلى أن أقتنع أبوه بأن يتركه يلتحق بالمعهد البريطانى .. الواقع أنه لم يقتنع فانه لم يفهم سر إصرار ابنه على الالتحاق بهذا

المعهد .. ولكنه استسلم إزاء هذا الاصرار .. وربما اذا لم يكن الأب قد استسلم لوجد رفعت طريقا للالتحاق بالمعهد حتى لو اضطر أن يهرب من العائلة .. إلى هذا الحد كان مصرا ..

والتحق رفعت بالمعهد البريطانى وكان نهما فى استيعاب اللغة الانجليزية حتى بدا كأنه طالب عبقرى بين طلبة المعهد .. وقدره المدرسون الانجليز وأولوه اهتمامهم .. وكان هو من الذكاء والنشاط وبموهبته فى الكلام الطويل واختيار ما يقول بحيث استطاع ان يحيل هذا الاهتمام إلى صداقة شخصية بينه وبين المدرسين وخصوصا مستر جولدمان .. لقد كان أكثرهم طيبة وبساطة وكان يبدو كأنه فى حالة سكر دائم .. إن رائحة الخمر تحيط به وتنطلق من بين شفتيه كأنها تعبق كل أنفاسه .. يتنفث خمرا .. وقد توطدت الصداقة بينه وبين جولدمان حتى أنه كان يصحبه معه بعد انتهاء الدراسه الى الخمارة القريبة من المعهد ويجلسه بجانبه وهو يتناول الخمر .. والغريب أن جولدمان لم يكن يدعو رفعت إلى تناول الخمر معه بل لم يدعه حتى إلى رشفه ماء .. إنه يضعه بجانبه يتبادل معه الحديث الطويل والنكات دون أن يكرمه بشيء .. لعل هذه هى عادة الانجليز .. على كل أن يعتمد على نفسه ويتحمل مسئولية إمتاع وإكرام نفسه.. وعلى كل فلم يكن رفعت يريد أن يذوق الخمر .. إنه يتأفف منها ربما بحكم البيئة التى نشأ فيها .. حتى بعد أن كبر وأصبح من الأثرياء لم يكن يحب الخمر إنما يضعها أمامه ويذوق رشفه أو رشفتين لمجرد مجاراة المظاهر الاجتماعية للطبقة الراقية ..

وكان كل ما يدور فى رأس رفعت هو كيف يستغل الصداقة التى اكتسبها مع مستر جولدمان وغيره من المدرسين الإنجليز للوصول إلى صداقة شخصيات انجليزية أكبر .. للوصول الى المجتمع الانجليزى الحاكم .. والشهور تمضى وهو لا يستطيع الوصول الى شىء .. ولكنه لا ييأس ..

وكانت ساعات الدراسة فى المعهد البريطانى قصيرة .. ساعتان أو ثلاثا .. وفى أيامه فراغ واسع كان يتعمد أن يقضيه مع شلل الشبان السياسيين وأصبح كأنه واحد منهم مشترك بين كل تصرفاتهم السياسية ويطلع على كل أسرارهم .. لقد استطاع أن يكسب صداقة هؤلاء الشبان كما كسب صداقة الانجليز .. وهم يعلمون أنه طالب فى المعهد البريطانى .. إنه يتعلم الانجليزيه ليحارب الانجليز بلغتهم .. كانوا مطمئنين اليه ..

وفى يوم سمع عن اعداد وطنى عاجل .. سر من الأسرار .. واتخذ قرارا .. كان أول قرار يتخذه بالنسبة للمستقبل الواسع الذى عاش فيه بعد ذلك ..

وذهب إلى مكتب المستر جولدمان فى المعهد البريطانى وقال له فى بساطة :

ـ ماذا ستفعلون غدا ..

وقال جولدمان من خلال أنفاسه المخمورة :

ـ ماذا سيحدث غدا ؟

وقال وهو لا يزال مدعيا البساطة وسلامة النية وكأنه لايسعى الى شىء :

ـ ألا تعلم .. لقد عرف الشبان أن المفاوضات بدأت تفشل فى لندن وقرروا القيام بثورة عنيفة يهاجمون بها السفارة البريطانية بل كل ما هو بريطانى فى مصر ، بل قد يهاجمون هذا المعهد .. ألا تعلمون ؟.

وسأله جولدمان فى جزع :

ـ من أين عرفت ؟

وقال رفعت فورا :

ـ كل قادة الشباب أصدقائى ..

ونظر إليه جولدمان نظرة حائرة وقال :

ـ انتظر .. اجلس هنا ..

ثم رفع سماعة التليفون وسمعه رفعت وهو ينقل ما قاله له ..

ثم أبعد سماعة التليفون عن أذنه وقال لرفعت :

ـ هل تستطيع أن تذهب للقاء أحد ؟

وقال رفعت دهشا :

ـ لقاء من ؟

وقال جولدمان بسرعة :

ـ إنه صديق يهمه لقاؤك .. يريد أن يسمع منك ما قلته لى ..

وفكر رفعت بسرعة .. لاشك أنها شخصيه هامة التى تريد لقاءه .. شخصية أحد المسئولين .. إن هذا ما كان يطمع فيه ..

وقال وهو يدارى حماسه :

ـ مستعد أن أذهب ..

وقال جولدمان فى التليفون :

ـ سيأتى اليك ..

ووضع سماعة التليفون وعاد يلتفت الى رفعت قائلا :

ـ إنه مستر مالكولوم .. وستقابله فى مكتبه بالسفارة .. ولا تدخل من الباب الرئيسى ولكن من الباب الجانبى .. وقدم هذه البطاقة وأنت تدخل ..

وأخرج من جيبه بطاقة شخصيه تحمل اسمه وكتب عليها كلمتين .. « للقاء مستر مالكولوم » .. ثم أعطاه لرفعت وهو يقول مبتسما :

ـ لا تتأخر .. أسرع ..

ورفعت بدأت تصيبه نوبة من الذهول .. كيف يدخل السفارة البريطانية .. لو رآه أحد من الشبان فلن يستطيع أن يجد تبريرا لدخوله .. وقد يقتلونه .. وهو فى نفس الوقت يستعين بكل أعصابه ليقاوم ذهوله .. ليجازف .. إن الحياة تبدأ بالمجازفه .. كل الذين

وصلوا الى ما يريدون بدأوا بالمجازفة .. لماذا يبدأ جبانا ويتصور أنهم سيرونه ويتهمونه ويقتلونه .. ليجازف ..

وذهب إلى السفاره البريطانيه سائرا على قدميه وهو يتلفت فى كل خطوة حرصا على ألا يفاجئه أحد ويتبعه .. وعند السفاره سار على الرصيف المقابل حتى تأكد من أن أحدا لن يراه يدخل .. ودخل وكان تقديم بطاقة جولدمان كافيا ليقودوه مباشرة الى مكتب مالوكولم ..

واستقبله مالوكولم بنظرة ثاقبة جادة كأنه يحاول أن يصل بعينيه إلى داخل رأسه .. ثم ابتسم له ابتسامة كبيره .. وقال ضاحكا :

ـ ماذا قلت لجولدمان ... كان يحدثنى كأنه يرتعش ..

وأعاد عليه رفعت ما قاله لجولدمان .. ولكن مالوكولم أخذ يسأله .. ويسأله .. عشرات من الأسئلة .. ورفعت يتعمد أن يبدو هادئا ويجيب .. وقد كان يتمنى ألا يجيب على كل الأسئلة .. ولو أنه كان يحاول أن يثبت أنه لا يخفى شيئا عن الانجليز .. واكتفى بأن يجيب ببعض ما يعرفه لا بكل ما يعرفه ..

وطالت المقابلة أكثر من نصف ساعة أثبت رفعت لنفسه خلالها انه أصبح يجيد اللغة الانجليزية .. إنه يتكلم بها كأنها لغته .. وأخيرا قال مالوكولم :

– كان لدينا بعض المعلومات ولكن معلوماتك نورتنا أكثر.. وسألقاك بعد غد ..

وقال رفعت فورا وبكلمات مرتعشة :

– لا أستطيع أن أراك فى السفارة .. إن دخول السفارة يعرضنى لمخاطر لا أتحملها ..

وقال مالوكولم مبتسما :

– لقد التقيت بك هنا لأنى فوجئت بك ولأن الموضوع فرض لقاء فوريا ولكن فى المرة القادمة سنلتقى فى بيتى فى المعادى .. بعد غد الساعة السابعة .. واطمئن ..

وأعطاه مالوكولم بطاقته التى تحمل عنوان بيته وهو يودعه حتى باب مكتبه .. وخرج من السفارة كما دخل وهو يتطلع حوله خوفاً من أن يراه أحد .. وسار مبتعدا وقد بدأ يحس كأنه يلوم نفسه .. هل هذا هو الطريق الوحيد الذى يستطيع أن يصل به إلى أحلامه .. أن تصبح مهمته هى نقل الأخبار إلى الانجليز .. هل يرضى لنفسه أن يكون جاسوسا .. عميلا .. ولكن انه لم ينقل إلى الانجليز أسرارا إنها أخبار عامة يمكن إن ينشرها أى صحفى فى جريدته إذا علم بها .. أخبار الحركة الوطنية .. أنه ليس جاسوسا ولا عميلا انه مجرد صحفى ينشر الأخبار وكأنه اختار أن ينشر أخباره فى جريده انجليزيه .. لا .. لا .. لن يلوم نفسه ..

وعندما وصل الى البيت نقل عنوان مستر مالوكولم إلى ورقة ثم مزق البطاقة ودخل بها المطبخ وأحرقها.. هذا أضمن ..

وقد قامت المظاهرات فعلا فى اليوم التالى .. مظاهرات ضخمة عنيفة .. ولكن السفارة البريطانية كانت قد حصنت نفسها بفرق البوليس علاوة على فرق الجيش البريطانية فلم تصبها ولا طوبه .. وكل المؤسسات البريطانية كانت قد حصنت نفسها فلم يصبها شىء.. كل بريطانيا لم يصبها شىء من هذه المظاهرات .. كل ما أصيب هى ما تملكه مصر علاوة على من قتل وأصيب من الشبان المصريين .. ورفعت يتتبع الأخبار بلا مبالاة .. إن ما حدث هو ماحدث لكل مظاهره تقوم فى مصر .. حتى لو كان المتظاهرون قد استطاعوا أن يصلوا إلى السفارة والمؤسسات البريطانية فماذا كان يمكن أن يحدث.. كانت القضية الوطنية كلها تزداد انهيارا والاحتلال يزداد تمكنا وعنفا .. هذه هى آراؤه السياسية .. إنه يعتبر نفسه معتدلا حتى مع حرصه على صداقة المتطرفين ..

وفى اليوم التالى ذهب إلى لقاء مالوكولم .. وقد تعمد أن يحمل إليه بعض الأخبار الجديدة .. يريد أن يقنعه بقيمته الإخبارية .. واستقبله مالوكولم بترحاب وحاول أن يقدم له كأسا ولكن رفعت اعتذر فقدم له كوبا من الشاى البارد .. لم يكن يعلم أن الشاى يقدم باردا أيام الحر .. لقد أصبح فيما بعد من هواة الشاى البارد .. واعترف له مالوكولم بأن معلوماته كانت مهمة فى مواجهة المظاهرات ..

وبدأ يناقشه فى الأخبار الجديدة التى حملها إليه .. ثم بدأ ينظم معه طريقة العمل .. وأحس كأن بريطانيا أعلنت حاجتها واعتمادها عليه .. إنه يستطيع أن يتصل بمالوكولم كل يوم وفى أى ساعة .. ويستطيع أن يكتب المعلومات على ورقة يقدمها اليه اختصارا للوقت .. و .. و .. إنه وصل معه إلى أدق تفاصيل العمل.. وعندما وقف لينصرف مد اليه مالوكولم يده بورقة مالية وهو يقول ضاحكا :

– مجرد مصاريف انتقال ولا أريد أن أعتبرها أتعابا ..

ونظر رفعت إلى الورقة الماليه .. إنها عشرة جنيهات .. إنها ضعف ما يدفعه أبوه كمصاريف لهم كل شهر .. وقد كان الجنيه أيامها له قيمة تهز وترن .. ولكنه فكر بسرعة .. وذكاؤه يدور داخل رأسه كالدينامو .. لا .. لن يقبل .. حتى لو كانت العشرة جنيهات لها قيمة تصلح حاله فلن يقبلها .. وألح عليه مالوكولم ولكنه أصر على الرفض .. إلى أن سأله مالوكولم :

– ماذا تفعل بجانب دراستك فى المعهد ؟

وقال رفعت وكأنه متعال :

– لا شىء .. إنى أنتظر أن أنتهى من دراستى حتى أبحث عن عمل ..

وقال مالوكولم فى لهجة الرئيس المسئول :

– إن المعلومات السريعه التى جمعتها عنك تقول أنك لست غنيا ولا من عائلة غنية ..

وقال رفعت وهو يمثل دور المتعالى :

– هذا صحيح .. ولكنى أعمل معكم حبا فيكم لا لأنى فقير ..

وهز مالوكولم رأسه مبتسما كأنه يفهم :

– على كل حال .. سنرى ..

وخرج رفعت وهو حائر مع ذكائه .. لقد رفض العشرة جنيهات حتى يفرض على الإنجليز أن يقدرونه بثمن أكبر .. إنه ليس مجرد شحاذ يريد أن يأكل .. إنه صاحب مشروعات كبيرة وان كانت كلها لا تزال مجرد احلام .. فهل يصل مع الانجليز الى ما يريد .. على كل حال فهو لن يتركهم مهما كان ما يصل إليه معهم .. ومالوكولم يريده أن يكتب المعلومات التى يقدمها اختصارا للوقت .. هل يكتبها بخط يده .. إن كل ورقة منها تصبح وثيقه اتهام وإدانة له .. وكان يمكن أن يقدمها مكتوبة لو كتبها على الآلة الكاتبة حتى لا تكون وثيقة ضده .. ولكنه لا يكتب على الآلة الكاتبة .. وليس لديه آلة يملكها ويتخفى بها .. لماذا لا يتعلم الآلة الكاتبه .. لماذا لا يشترى آلة؟ ولكن كيف .. من أين .. ن أباه لا يمكن أن يدفع له مليما واحدا زيادة عما يدفعه ..

ومضت ثلاثة أيام وفوجىء بعدها بمستر جولدمان يستدعيه ويقول له من خلال ابتسامة واسعة تنفث رائحة الخمر :

– مضى أكثر من يوم وأنا أبحث عنك .. إنى أحمل لك مفاجأة.

وقال رفعت ضاحكا :

– كل مفاجآتك ضحكات ..

وقال جولدمان : :

– هذه المفاجأة ستجعلك أسعد مخلوق فى الدنيا .. لقد قرر المعهد اختيار أحد الطلبة للاشراف وترتيب أوراق الطلبة الآخرين وقد وقع الاختيار عليك .. هل تدرى كم تأخذ أتعابا لهذه المهمة .. ثلاثون جنيها فى الشهر .. تصور .. سيكون فى يدك ثلاثون جنيها كل شهر ..

واهتز رفعت من فرحته .. إن بطيخ كفر البطيخ لايمكن أن يدر على أبيه ثلاثين جنيها فى الشهر .. لقد استطاع فى أول خطوة أن يكون أغنى من أبيه .. وبسرعة اكتشف أن ليس هناك عمل له عما قاله جولدمان .. وليس مكتب عمل ولا مواعيد عمل .. بل العمل الذى قالوا له عنه لم يعلن .. أصبح كأنه سر لا يفصح .. تأكد رفعت من أنه كان ذكيا عندما رفض العشرة جنيهات التى

قدمها له مالوكولم .. لقد أصبحت ثلاثين جنيها .. يقبضها فى ظرف مغلق يقدمه له جولدمان دون أن يذهب إلى ادارة المعهد ..

وكان أول ما استغل فيه المبلغ الذى وصل إليه هو أن التحق بمعهد لتعليم الكتابة على الآلة الكاتبة. وبدأ يتعلم الكتابة بالانجليزية. وعندما بدأ يتفوق فيها زاد من تعلم الكتابه على الآله بالحروف العربية .. ولكنه عندما اشترى آلة كاتبة بالتقسيط اشترى آلة بحروف انجليزية ..

وبعد شهور استطاع أن يقنع والده بأن ينتقلوا من سكن الدراسة .. أنه حى لم يعد يليق به بعد أن وجد عملا بمرتب كبير فى شركة أجنبية .. أنه يربح الآن .. واستسلم والده وتركه ينقلهم الى بيت فى حى الظاهر ..

إنه حى اليهود .. ولكن اليهود هم الطائفة الراقية فى مصر .. طائفة رجال الأعمال ..

***

وابتسم رفعت وهو يتذكر انبهاره وانبهار إخوته عندما انتقلوا إلى حى الظاهر .. لقد خيل إليهم أنهم ارتفعوا إلى وجه الدنيا رغم

أن البيت الذى سكنوه كان فى حارة . لم يكن أيامها يحلم بأنه سيعيش فى مثل هذا البيت .. بيت اللوردات .. المطل على النيل ..

ودخل البتلر إليه يدعوه إلى تناول طعام العشاء .. إن العشاء فى الساعة الثامنة والنصف كما تفرض التقاليد الإنجليزية .. وهى ساعة صحية .. تستطيع أن تأكل وتهضم وأنت محتفظ بكل نشاطك لا أن تأكل وتنام كما يفعل الأغبياء ..

وقام يحمل ذكرياته معه إلى مائدة الطعام ..

(٢)

واستطرد رفعت البيومى يسترجع ذكرياته وبين شفتيه هذه الابتسامة التى تقطر غرورا وتباهيا بذكائه الذى يفخر به دائما ويهنىء نفسه به ..

وقد مضى أكثر من عامين وهو ينسب نفسه طالبا فى المعهد البريطانى وعندما انتهت مدة التعليم وقد نجح فعلا وكان أول الناجحين ادعى أنه يعد لتقديم شهادة ماجستير سترسل إلى لندن ويمتحن فيها هناك .. وفى نفس الوقت كان يوسع اتصالاته بكل التجمعات الوطنية والسياسية على اختلاف أنواعها وألوانها .. إن له أصدقاء بين الشبان الوفديين والسعديين والدستوريين .. وأصدقاء من الإخوان المسلمين والشيوعيين .. بل إنه اكتشف أن القصر الملكى أقام تنظيما وطنيا لحسابه الخاص يتظاهر بالدعوة إلى الثورة .. واستطاع

أن يصادق بعض شبان هذا التنظيم دون أن يصارحهم بأنه يعرف عنهم شيئا .. إنه فقط شاب وطنى متحمس .. وكل ذلك دون أن ينسبه واحد من هذه الجماعات إلى الآخر .. ودون أن يثير الشك فى نياته .. وعلاقته بالشبان أدت إلى أن أصبحت له علاقات بالقادة والزعماء .. كان يذهب مع الشبان للاجتماع بهم ويسمع كل توجيهاتهم ويكتشف نياتهم السياسية .. وكان يستطيع دائما أن يجد سؤالا أو اثنين ويذهب وحده للقاء زعيم أو شخصية بارزة ليسأل ويتطور بالسؤال حتى يكتشف مزيدا من الأسرار .. ولم يكن يعتمد فى علاقاته على قدرته على الكلام الطويل فى كثير من المواضيع بل كان يقدم خدمات .. كان لايتأخر فى مساعدة طالب فى مذاكرة اللغة الانجليزية أيام الامتحانات حتى لو كان من طلبة الجامعة .. وكان يشترك فى كتابة المنشورات إذا طلب منه ويستطيع أن يسجل فيها حماسا يؤكد أنه فى قمة الوطنية .. وكان يتبرع من جيبه تبرعات صغيرة لتحقيق أى خطة وطنية .. كان يبحث بنفسه عن تقديم الخدمات .. ولكنه لايقدم خدمة الا لمن يحتاج اليه .. والذين لايحتاج إليهم لايعرفهم ..

وكل ذلك جعل منه خزينة لاتفرغ من المعلومات .. وفى كل يوم يجلس إلى الآلة الكاتبة ذات الحروف الانجليزية ويكتب رسالة طويلة يضمنها كل ماجمعه من معلومات ويضيف اليها رأيه ثم يرسلها إلى مستر مالوكولم فى السفارة البريطانية عن طريق مستر

جولدمان المدرس فى المعهد .. وأحيانا يذهب إلى مالكولم بنفسه فى بيته بالمعادى إذا كانت هناك مواضيع تتطلب مزيدا من الشرح .. وإعجاب مالوكولم وثقته به تزداد يوما بعد يوم حتى أنه فوجىء وهو يتسلم الظرف المغلق من جولدمان فى البار المجاور للمعهد بأنه يضم خمسين جنيها لا ثلاثين كما كانت ودون أن يطلب مزيدا ..

ولكنه بدأ يحاسب نفسه على انتسابه للمعهد كل هذه السنوات الطويلة .. إنه يخشى أن يعتبره شبان الحركة الوطنية مجرد موظف بريطانى وتبدأ الشكوك تثور حوله .. ثم إنه يجب أن تكون له صفة خاصة .. مهنة يعرف بها .. لن يكفيه ولن يستره الاستمرار فى ادعاء أن أباه غنى ويعيش معتمدا عليه مكتفيا بأرباح زراعة البطيخ .. إنه لن يستكمل شخصيته الا إذا كان له عمل يعرف به .. وقد فكر فى أن يعمل مدرسا للغة الانجليزية فى احدى المدارس الخاصة .. وفكر فى أن يعمل فى الصحافة .. إن أغلب المعلومات التى يحصل عليها ويخص بها مستر مالوكولم تصلح للنشر كأخبار فى الصحف .. ولكن لماذا يقتصر تفكيره على هذه المهام المتواضعه المحدودة القيمه والمحدودة الدخل .. لماذا لايستغل ذكاءه فى البحث عن الطريق الذى يصل به إلى القمة .. قمة القوة والمهابة الشخصية وقمة الثراء .. لماذا لايطمع فى أن يكون شخصية من الشخصيات المعروفة المبجلة بين الشخصيات المصرية .. انه واثق فى ذكائه ..

وذهب للقاء مستر مالو كولم فى بيته بالمعادى وقال له وهو حريص ألا يبدو فى كلامه كأنه محتاج أو كأنه يشحذ :

— لقد أصبحت أحس أن انتسابى للمعهد البريطانى قد يضعف من شخصيتى ويؤثر فى نشاطى .. يجب أن يكون لى عمل واضح أستكمل به شخصيتى أمام أصدقائى .. وقد قررت أن أبحث عن عمل جديد ..

وقال مالو كولم من خلال ابتسامة خبيثة كأنه يستطيع أن يرى كل ما فى رأس رفعت :

— أى عمل ؟

وقال رفعت مدعيا الإصرار :

— عمل حر ..

وعاد مالو كولم يسأله من خلال ابتسامته الخبيثة :

— أى نوع من الأعمال الحرة ؟

وقال رفعت وهو يدعى اللامبالاة :

— لم أقرر بعد .. انى مازلت أدرس ما أمامى ..

وقال مالو كولم وهو يربت على كتفه :

— سأراك بعد يومين وأكون قد فكرت لك وقد أستطيع أن أساعدك ..

وقال رفعت مبتسما :

— لا أريد أن أتعبك ..

وقال مالو كولم :

— إنى أحب أن أتعب لك وإن كنت لن أتعب ..

وقبل أن ينصرف رفعت أمسك مالو كولم به وقال فى حماس كأنه خطرت له فكرة :

— اسمع .. تعال إلى هنا فى البيت يوم السبت .. فى الساعة السابعة مساء .. وتعال برباط عنق أسود .. خطرت على بالى فكرة ستعرفها يومها ..

وخرج رفعت حائرا .. ماذا أعد له مالو كولم يوم السبت .. لعله سيجمعه ببعض الشخصيات الانجليزية التى يمكن أن تعرض عليه عملا جديدا .. ورباط العنق الأسود الذى طلبه منه يعنى أن يرتدى بدلة سموكن .. لاشك أنه دعاه إلى حفلة عشاء فخمة رسمية .. ولكنه لايملك بدلة سموكن .. يجب أن يشترى واحدة .. هل معه ما يكفى لشراء مثل هذه البدلة .. وقضى أيامه وهو يسعى لشراء بدلة سموكن ويقارن بين الثمن وما فى جيبه .. إلى أن اشترى بدلة مستعملة « سكند هاند » و .. ولكنه كان حريصاً على أن تبرزه فى صورة لائقه محترمة .. واضطر أن يشترى قميصا منشى وأزرارا لامعة .. والكرافت الأسود .. بل اضطر ان يشترى حذاء أسود لامعا .. كل مايتطلبه السموكنج .. أضاع كل ما أدخره .. لايهم .. إنه لايسرف ولكنه يجازف .. وقد قرر منذ البداية ألا

يتردد أمام المجازفات التى تخطر بباله .. ولكن من سيقابل فى هذا الحفل .. ربما بشخصيات معروفه بعدائها للحركة الوطنية ويفضحه لقاؤه بها .. ولكن مالوكولم حدد له موعدا مبكرا قبل الحفل .. فى الساعة السابعة وسيعرف منه قائمة المدعوين وإما أن يختار البقاء أو ينصرف ..

وجاء يوم السبت .. وذهب إليه فى الموعد وهو يحمل قائمة بالمعلومات الدسمة كأنه يرشوه بها .. وقال له مالوكولم بسرعة :

— سأصحبك إلى العشاء فى بيت منصور باشا فكرى .. لقد اتفقت معه على دعوتك ..

واهتز كل كيان رفعت .. إنه لايعرف منصور فكرى شخصيا ولكنه معروف بأنه رجل الإنجليز الأول فى مصر .. وعن طريق الأنجليز استطاع أن يكون أقوى رجل فى مصر .. وأثرى أثرياء مصر .. إنه يملك عشرات الشركات الصناعية والتجارية .. وأصبح عن طريق الإنجليز يتحكم فى كل الحكومات المصرية .. وأصبح باشا .. كيف يذهب إلى بيت منصور فكرى فى حين أنه حريص على أن يعرف بين الناس بشخصية الوطنى الثائر ..

ولاحظ مالوكولم اهتزازه وقال ضاحكا :

— لن تلتقى هناك بمن يشى بك إلى أصدقائك .. ثم إنه أفضل من يستطيع أن يجد لك عملا حرا من الأعمال التى تبحث عنها ..

وأفكار لاتزال تعصف بعقله .. لماذا لايذهب ويتعرف بمنصور باشا فكرى .. لماذا لايجازف .. إنها أمنية لم يكن يحلم بتحقيقها .. ثم إن كل الزعماء ورؤساء الأحزاب يتشرفون بلقاء منصور فكرى .. بل إن كلا منهم يتحكم فى فترة يجعل فيها من منصور فكرى شخصية وطنية يقدمها للشعب كأنها شخصية زاهية نظيفة فى وطنيتها .. بل قبل إن منصور فكرى بدأ يفكر فى إقامة حزب سياسى خاص به .. لاشك أنه سيكون حزب الإنجليز .. المهم أنه يجب ألا يخاف .. ولايتردد .. يجب أن يجازف إلى أبعد ويتشرف بلقاء منصور فكرى ويحاول أن يستغله .. وهو يستطيع دائما أن يجد ما يبرر به هذا اللقاء أمام الجمعيات الثورية الوطنية .. إنه ليس أقل من باقى الزعماء والقادة الذين يذهبون إلى منصور فكرى ولكنه يتميز عنهم بأنه لايريد أن يصل إلى الحكم ولكنه يريد أن يكتشف أسرار الإنجليز حتى يحاربهم بأسرارهم .. هكذا سيقول إذا سأله أحد من هؤلاء الثوار ..

وقال رفعت لمالوكولم وهو يحاول أن يطرد حيرته عن مظهره :

— يكفى أن أتعرف به .. إنه فعلا شخصيه هامة ..

وذهب مع مالوكولم فى سيارته إلى قصر منصور فكرى فى مصر الجديدة وهو يراعى فى جلسته بجانبه ثم فى كل خطوة يخطوها أنه مرتد بدلة سموكن .. كان يحس كأنها كالبدلة العسكرية تفرض على لابسها قيودا مرسومة لكل حركة ..

وذهل عندما دخل القصر .. إنه حفل كبير .. والقاعات كلها مزدحمة بالعشرات رجالا ونساء .. ليس كل الرجال من الإنجليز إن بينهم شخصيات مصرية معروفة .. وهى شخصيات تمثل كل الأحزاب والاتجاهات السياسية .. وليس بينهم من يعرفونه معرفة شخصية .. لم يكن بينهم واحد من هذه الشخصيات التى تتولى قيادة الشباب من داخل الأحزاب .. الحمد لله أن لا أحد يعرفه .. والنساء أيضاً بينهن أيضاً مصريات كثيرات .. وبينهن هذه الشخصيات النسائية المعروفة فى إحياء الحفلات رغم أنهن لسن فنانات .. إنهن زوجات من كبار العائلات .. ولكن يكفى جمالهن ورشاقتهن وخفة دمهن .. إنهن كالأعلام التى ترفرف على المجتمع ..

وقدمه مالوكولم إلى منصور باشا الذى قال له فى تعال :

— سمعت عنك سمعا يسرك وسأراك غدا فى مكتبى ..

وكانت هذه هى الكلمة الوحيدة التى سمعها من منصور فكرى ليلتها وانشغل منصور عنه ببقية المدعوين،وكان يبدو كأنه يتجاهله كلما سقطت عيناه عليه صدفة .. ووقف رفعت فى جانب ملتصق بمالوكولم وهو يتطلع إلى المدعوين كأنه يجد نفسه فى عالم جديد .. غريب . إن كل من يراهم سبق أن سمع عنهم أو رأى صورهم فى الصحف .. وهو لايستطيع أن يجد طريقه بينهم .. لايعرف كيف يقدم نفسه إليهم أو كيف يبدأ حديثا معهم .. وأشد ما جذب عينيه هو النساء .. لم يكن يحلم بأن يقف معهن على أرض واحدة .. كل

هذا الجمال .. وكل هذه المجوهرات .. إن كلا منهن تحمل من المجوهرات ما يعجز عن شرائه كل بطيخ كفر البطيخ .. هل يأتى اليوم الذى يصبح فيه رجلا كهؤلاء الرجال وله نساء مثل هاتيك النساء ..

وأقبلت شابة صغيرة تصافح مالوكولم .. إنها ليست جميلة .. ولاترتدى ثوبا من هذه الثياب المذهلة .. وليس عليها أى قطعه من المجوهرات .. ولكنها إنجليزية .. وقدمها إليه مالوكولم قائلا بسرعة :

— رفعت .. مجدولين .. إنها جديدة على مصر .. سأتركك لتحدثها عن مصر حديث الشباب ..

وابتعد عنه مالوكولم بسرعة كأنه كان يريد أن يتخلص من عبئه ..

ووقف هو مبتسما أمام مجدولين وقد وجه كل ذكائه إليها .. ماذا يقول لها .. ماذا يفعل بها .. إنه هو شخصيا ليس له أى تجربة مع النساء أو البنات .. لقد عاش متفرغا حتى اليوم لاختيار طريقه وبناء نفسه .. بل إنه يعتبر حتى شابا بكرا رغم أنه تعدى الثالثة والعشرين من عمره .. هل يبدأ حياته بهذه الفتاة .. إنها ليست جميلة .. ولكنه هو نفسه لايعتبر نفسه وسيما ولم يطرأ فى حياته مايشد إحدى البنات إلى وسامته .. إن كفر البطيخ كانت بخيلة فى تشكيله علاوة على قصر قامته .. ولكن مجدولين ليست مجرد فتاة إنجليزية لقد عرف بحديثه معها أنها ابنة وكيل بنك باركليز الجديد الذى

عن أخيرا .. بل إنها أخذته وسارت به بين المدعوين وقدمته إلى أبيها .. إنه لاشك سيكون فى حاجة إلى معاشرة البنوك إذا أراد أن يحقق أحلامه .. بل ربما كان من مصلحته أن يسعى للزواج بمثل هذه الفتاة .. فتاة إنجليزية .. إن منصور باشا فكرى متزوج من إنجليزية .. لعله لم يكن يستطيع أن يصل إلى كل هذا المجد لو لم يكن متزوجا من إنجليزية .. إن الزوجة الإنجليزية هى الطريق السهل إلى السفارة البريطانية .. خصوصا إذا كانت ابنة رجل يحسب حسابه .. ابنة وكيل بنك باركليز ..

كل ذلك كان يدور فى خاطره وهو يستغل كل ذكائه وكل موهبته فى إطالة الحديث لاكتساب مشاعرها واهتمامها وشغلها بنفسه حتى لاتبعد عنه . وقال لها عند نهاية السهرة :

– هل سأراك غدا لنذهب إلى سفارة ..

وقالت فى مرح :

– لماذا غدا ..

وقال ضاحكا :

– لأن الجو فى مصر حار لايحتمل الانتظار بعكس الجو البارد فى لندن ..

وضحكت واتفقت على لقائه فى الغد، ولكن بعد أن تعمد أن يكون اللقاء فى الساعة الرابعة بعد الظهر لأنه فى الصباح يضع كل همه فى لقاء منصور باشا بمكتبه كما وعده ..

• • •

.. ذهب رفعت البيومى إلى مكتب منصور باشا فكرى وهو يجمع كل أعصابه حتى يثق فى نفسه ويقنع نفسه بأنه إنسان شاطر ذكى .. إن منصور باشا لم يكن ليقابله لولا توصية مالوكولم .. ومعنى هذا أن صداقته لمالوكولم يستطيع أن يفرض بها إرادته ويصل بها إلى ما يشاء .. إنه قوى بمالوكولم وليس فى حاجة إلى الاعتماد على قوة منصور باشا .. وتعمد وهو فى الطريق أن يشترى « بايب » ووقف فترة مع البائع حتى يتعلم منه كيف يحشوها بالدخان وكيف يشد أنفاسها منها .. إن كل من عرفهم من الإنجليز يدخنون البايب، وفى حفل العشاء الفخم كان كثيرون من المدعوين حتى من المصريين يحملون البايب بين أصابعهم .. وهو يريد أن يكون له مظهر الطابع الإنجليزى ومظهر الطبقة الأرستقراطية التى تعيش مع الإنجليز حتى يؤثر على منصور باشا ويقنعه بأنه ليس مبتدئا دخيلا على هذه الطبقة .. وإن كان لم يسترح عندما شد أول أنفاسه من البايب وانتابته نوبة من الكحة اكتفى بعدها بأن يحمل البايب بين أصابعه دون أن يقربها من فمه ..

ولم يستقبل الاستقبال الذى كان ينتظره اعتمادا على نفوذ مالوكولم .. لقد لطعه منصور باشا فى مكتب السكرتارية أكثر من نصف ساعة وهو جالس يتسلى باللعب بالبايب بين أصابعه ويحاول أن يبدأ أحاديث مع السكرتير حتى يكسب صداقته .. إن الصداقة الجديدة هى التى تشمل كل الطبقات من السكرتير إلى الرئيس ..

وسمح له أخيرا بالدخول إلى منصور باشا واستقبله جالسا إلى مكتبه وبين شفتيه ابتسامة باردة صغيرة كأنها كليشيه رسمى لاستقبال الزوار .. وقال له فورا دون أن يدعوه إلى الجلوس :

— مستر مالوكولم يثق فيك جدا وتكلم عنك كأنك أعجوبة ..

وقال رفعت وهو يتلفت حوله باحثا عن المقعد الذى يجلس عليه ثم جلس دون دعوة ودون استئذان :

— إنه صديق قديم ..

ونظر إليه منصور باشا وهو يراه يجلس بلا استئذان ولم يعترض ولكن كان فى نظرته امتعاض وقال :

— قال لى أنك تريد أن تعمل .. ماذا تعمل ؟

وقال رفعت وهو يتعمد الهدوء ويتعمد الجلوس فى أدب :

— الواقع أنى فى حاجة إلى دراسة كل مجالات العمل قبل أن أحدد ماذا أعمل .. ولاشك أن سعادتك خير من يوفر لى هذه الدراسة ..

وقال منصور باشا بلهجة سريعة كعادته عندما يتكلم :

- سأوصى مدير المكتب بأن يسهل لك مجال جمع المعلومات .. اقصد مجال الدراسة .. وسيكون لك مرتب .. مائة جنيه فى الشهر ..

وقال رفعت فى لهجة هادئة وهو يكتم هزة فرحته :

- شكرا ..

— هل تعرف برعى بك ..

وقال رفعت فى حيرة :

— برعى بك من ؟

وقال منصور باشا :

— برعى محمود .. ألا تعرفه .. غريبة ..

وقال رفعت كأنه يتذكر :

— أسمع عنه .. وأقرأ عنه .. ولكنى لا أعرفه شخصيا .. ولا أعرف عنه إلا أنه من كبار رجال الأعمال ..

ولوى منصور باشا شفتيه امتعاضا :

— حاول أن تعرف عنه كل شىء حتى لون وسادة الفراش الذى ينام عليه .. وبلغنى أنا شخصيا بكل المعلومات التى تحصل عليها .. سيكون لك حق لقائى فى أى وقت ..

وقال رفعت فى ضيق :

— سأحاول ..

وأشار منصور باشا إلى الباب بأصبعه كأنه يطرده قائلا :

— تستطيع الآن أن تذهب للقاء مدير مكتبى .. إن لديه كل المعلومات التى تخصك ..

وخرج رفعت وهو يحاول أن يفسر كل كلمة سمعها من منصور باشا .. إنه يريده أن يعمل لحسابه الخاص .. أى أن يسلمه

هو شخصيا كل المعلومات التى يحصل عليها .. ويكون له حق توجيهه إلى نوع المعلومات التى يريدها .. لا .. لن يتنازل عن اتصالاته وصداقته لمالوكولم .. لن يكون فى خدمة منصور باشا بل فى خدمة مالوكولم حتى يحتفظ بقوته .. قوة مباشرة .. ولكنه لايريد أن يرضى منصور باشا .. إنه هو الآخر قوة لايستهان بها .. ثم إنه سيدفع له أتعابه .. مائة جنيه فى الشهر .. لاشك أنه اتفق مع مالوكولم على هذه الأتعاب لتكون بديلا عن الخمسين جنيها التى ترسلها له السفارة على يد مستر جولدمان .. إن مالوكولم يريد أن يبعده عن كل الشبهات .. لم يعد يتقاضى أتعابه من السفارة بل من شركة الإنشاءات التى يملكها منصور باشا كأى موظف عادى ..

ولكن لماذا يهتم منصور باشا كل هذا الاهتمام بأخبار برعى بك محمود كأنه يبحث عن أسرار عدوه ليحاربه بها .. إنه لايدرى بعد ..

ودخل إلى مدير المكتب وقد استقبله بترحاب كبير وأحس بعد لحظات أنه يعرف عنه كل شىء .. يعرف حقيقة عمله .. ويعرف القوة التى استند عليها ودفعته إلى العمل فى هذه الشركة .. وقد كان شخصية سهلة قدر رفعت أنه يستطيع أن يكسبها بسهولة .. وجلس معه جلسة طويلة بذر خلالها بذور صداقته وقام منصرفا بعد أن اتفق معه على وضعه الذى سيكون عليه فى الشركة ..

ووجد نفسه بعد أن خرج يتجه إلى حى الدراسة .. بداية طريقه منذ جاء من كفر البطيخ إلى القاهرة .. ومهبط وحيه .. إن كثيرين من أصدقائه الشبان الوطنيين لايزالون يقيمون فى حى الدراسة .. ويحس إحساسا غريبا كأنه يريد أن يعتذر لهم عن علاقته الجديدة بمنصور فكرى .. يريد أن ينفى تهمة لم توجه إليه بعد .. وجلس فى مقهى عزوز الذى تعود أن يجتمع فيه بأصدقائه ويسرق منهم معلوماتهم عن الحركة الوطنية .. وأرسل فى طلب رطل كباب من الكبابجى المجاور .. لقد كان الكباب أيامها يقدم فى المطاعم بالرطل لا بالكيلو كما يقدم هذه الأيام .. ولم يلبث طويلا حتى بدأ أصدقاؤه يتجمعون حوله .. وقال دون أن يسأله أحد وكأنه يريد أن يتخلص من عقدة الدفاع عن نفسه .. العقدة التى تهرى أعصابه :

– لقد وجدت أخيرا وظيفة .. فى شركة الإنشاءات ..

وقال أحد الأصدقاء فورا :

– إنها شركة يملكها منصور فكرى .. احترس ..

وقال رفعت ضاحكا :

– لا أدرى من يملكها .. كل ما أدريه أنى فى حاجة إلى وظيفة وقد وجدتها فى هذه الشركة .. والعمل شىء والسياسة شىء آخر ..

وقال صديق آخر :

– يقال أنه سيؤسس حزبا سياسيا جديدا وقد يفكر فى أن يضم إليه كل موظفى شركاته ..

وقال رفعت كأنه يهتف :

— مستحيل .. إنهم لم يشترطوا على الانضمام لحزب وإلا لما قبلت الوظيفة .. وأنتم تعرفوننى .. إنى أضع حريتى فوق كل الأحزاب .. ولعل هذا كلام .. وقد قرأت فى الصحف أن منصور فكرى كان فى زيارة النحاس باشا فهل كان يعرض عليه الأنضمام لحزبه الجديد .. كلام ..

وطال النقاش إلى أن قام رفعت منصرفا وهو مطمئن إلى أنه احتفظ بثقة أصدقائه ولن يتعرض لأى اتهام ..

* * *

كانت الساعة قد قاربت الرابعه .. موعده مع مجدولين .. وكان الاتفاق أن يمر بها فى بيتها بالزمالك .. بيت وكيل بنك باركليز .. ويأخذها من هناك إلى سقارة .. وقد أخرج من جيبه البايب الذى كان قد اشتراه فى الصباح وأخذ يجرب وهو فى طريقة إشعاله وشد أنفاسه ثم يعجز فيكتفى باحتضانه بأصابعه متباهيا بالمظهر الإنجليزى .. لقد كان حريصا أن يخفى هذا البايب عن أصدقائه الذين التقى بهم .. لايريد أن يتصوروا أنه ارتقى إلى مرتبة الإنجليز .. ولن يروا البايب فى يده .. ولن يروا البدلة الاسمو كنج طبعا ..

وفتحت له مجدولين الباب وبين شفتيها ابتسامة واسعة ووجهها يفيض مرحا .. لقد كانت فعلا فى انتظاره .. ووضعت ذراعها فى ذراعه وشدته خارجة إلى الشارع ..

وقال وهو يحس بلحم ذراعها ملتصقا بذراعه :

— ليس عندى سيارة ..

وقالت ضاحكة :

— ولا أنا ..

قال وهو يضغط بذراعه على ذراعها :

— سنركب سيارة أجره ..

قالت فى مرح :

— كما تريد ..

قال من خلال ابتسامه تملأ وجهه الفلاحى :

— المسافة بعيدة والوقت قصير ..مارأيك لو ذهبنا إلى الهرم بدلا من سقارة .. إنى واثق أن هناك الكثير لم ترينه من الأهرام ..

قالت ضاحكة :

— موافقه ..

وخطا بها خطوات وهو سعيد بذراعها تحت ذراعه .. لم تعطه امرأة من قبل ولا حتى ذراعها .. ثم قال وابتسامته تنضج بذكائه :

— هل تريدين أن تحسى وتتفرجى على مصر كلها .. تعالى نذهب فى الترام .. إن الترام فى مصر يصلح منتدى للأصدقاء ..

وصاحت فرحة :

— فكرة رائعة .. إنى منذ وصلت مصر وأنا أتمنى أن أركب الترام .. ليس عندنا فى لندن ترام مثله ..

واستراح لفرحتها .. إنه كان يسعى للتوفير .. إن أجر السيارة حتى الهرم لن يقل عن ثلاثين قرشا ولكن الترام لن يكلفه أكثر من قرشين وأربعة مليمات ..

وركبا الترام .. درجة أولى .. وهى طول الوقت ملتصقة به دون أن تحس بعتاب نظرات بقية الركاب ولابسخطهم .. وهو لايكف عن الكلام .. يحدثها عن تاريخ الفراعنة .. وعن تاريخه هو شخصيا .. ويدمج حديثه كلمات الاعجاب بها والاجتذاب إليها .. ثم طاف بها الأهرام ودخلها فيها وفى كل مناسبة يزداد التصاقا بها وهى مقبلة على مزيد من الالتصاق .. إلى أن ركبا جملا .. جمل واحد .. هى فى مقدمة السنام وهو جالس وراءها ملتصقا كله بها .. وأحس بالجمل وهو يتحرك يجعله يتحرك فوق ظهرها .. إن كل مافيه يتحرك .. إحساس لم يكن يحس به إلا عندما يحلم فى نومه .. واشتدت به أعصابه الهائجة حتى كفيه واحتضن بها صدرها .. وهى مستسلمة .. ترتكز بظهرها عليه أكثر حتى تمكنه منها أكثر .. ولكن هبت عليه زوبعة من الخوف .. أنه

يخاف أن يتهور وتدفعه فحولته رغما عنه إلى أن يأخذها أمام الناس .. فأمر صاحب الجمل بأن يهبط بهما على الأرض .. وقفز من فوق الجمل بسرعة كأنه يهرب ويريح نفسه مما هو فيه ..

وعاد بها فى سيارة أجرة .. لم يعد يحتمل حالته ولم تغلبه نزعة التوفير .. وقد جلس بجانبها فى السيارة كأنه خجل منها لايستطيع أن يرفع عينيه إليها .. كان يعتقد أنه فقد أعصابه معها فوق الجمل مما لايشرف مصريا أمام فتاة إنجليزية .. قد تقول عنه أنه حيوان تتمكن منه مطالب الحيوان .. وهى بالعكس .. تنظر إليه متعجبة من ارتباكه ومن اختصاره فى حديثه الطويل الذى عودها عليه .. لقد كانت هى التى تتحدث .. وتتحدث طويلا وتحتضن يده بيدها وتلصق كتفها بكتفه ، لعلها تعيد إليه إحساسه .. إحساسه بها كما كانا فوق الجمل .. وكلاهما لم يفصح عما أحس به فوق الجمل ..

وقالت له وهو يودعها أمام البيت :

— تعال .. كوب من الشاى ..

قال وهو يلتهمها بعينيه بعد أن هدأت كل أعصابه :

— آسف .. مرتبط بعمل ..

قالت وهى ملتصقة به :

— سأراك غدا ..

قال سعيدا :

— أين ؟

قالت وهى تحتضنه بعينيها :

– هنا .. فى البيت .. نشرب الشاى معا .. فى الساعة الرابعة .. إنى أعرف أنك مشغول دائماً فى الصباح ..

وظلت وعيناها معلقتان بعينيه كأنها تنتظر منه شيئا .. وهو مكتف بيدها فى يده وابتسامته بين شفتيه .. وكأنها يئست من أن يتحرك فانحنت فجأة وقبلته قبله سريعه على وجنته ثم اختفت داخل البيت .. انحنت لأنها أطول منه قامة ..

* * *

وكان رفعت مرتبطا فعلا بعمل ..

كان يريد أن يبحث وراء برعى بك محمود كما طلب منه منصور باشا فكرى .. وطاف بالأصدقاء والمعارف الذين يعتقد أنهم يعرفون برعى محمود .. طوال الليل وطوال صباح اليوم التالى وهو يبحث .. ووصل إلى معلومات لم تكن تخطر على باله ولاتثير اهتمامه ..

ان برعى محمود هو رجل أمريكا الأول فى مصر ..

ولكن ..

إن منصور فكرى هو رجل بريطانيا الأول فى مصر .. غريبة ..

إن بريطانيا تقيم حلقة واسعة من التجسس على أمريكا فى مصر ..

لم يكن هذا يخطر على باله ..

(٣)

كان رفعت البيومى قد فوجىء بأن لأمريكا رجلا فى مصر تعتمد عليه السفارة الأمريكية ومن خلفها واشنطن .. وهو برعى بك محمود .. وقد لام نفسه لأنه فوجىء .. لم يتسع ذكاؤه ليكتشف أن أمريكا بعد الحرب أصبحت فى مصر .. ولم يقدر أنها أصبحت الأقوى بعد أن كان لها الفضل فى تحقيق الانتصار على النازى فى الحرب العالمية .. وهو فضل مفروض أن يحملها مسئولية العالم كله .. كان ذكاؤه محصورا فى الواقع القديم الذى يفترض أن بريطانيا هى القوة الوحيدة فى مصر .. الدولة التى لاتزال تحتل مصر بقواتها ..

وربما كان أحد أسباب المفاجأة أن أمريكا فى أيامها كانت تتحرك داخل مصر فى هدوء وخفية حتى لايحس أحد فى مصر بها .. كان المصريون لايحسون بأمريكا إلا من خلال أفلام الحرب

ورعاة البقر التى تعرض عليهم .. وكان أشهر مشروع شعبى أقامته أمريكا فى مصر هو بناء سينما مترو .. فى حين أن بريطانيا كانت تعيش بين المصريين بتاريخ الاحتلال المرير .. وكل مصرى يفتح عينيه كل صباح مطالبا بالجلاء .. وكانت مصر تعيش قضية وطنية مع بريطانيا ، ولذلك لم تحس إلا ببريطانيا .. وبريطانيا لم تكن تنكر وجودها فى مصر ، وكانت تجاهر بحق سيطرتها على مصر ، وحتى بحق تدخلها فى اختيار الوزارات والوزراء وفى كل كبيرة وصغيرة من شئون مصر ..

ولذلك كان رفعت البيومى معذورا فى جهله بالنشاط الأمريكى فى مصر .. ثم إن برعى بك محمود نفسه لم يكن يجاهر بأنه رجل أمريكا الأول فى مصر ولا حتى كان يجاهر بأصدقائه الأمريكان .. كان كل ما هو معروف عنه فى مصر أنه رجل أعمال شاطر .. فى حين أن منصور باشا فكرى كان يجاهر متفاخرا متباهيا بأنه رجل الإنجليز الأول فى مصر .. وإن كل بريطانيا وكل السياسة البريطانية الخاصة بمصر بين يديه .. لن يستطيع حزب أن يتولى الحكم إلا بالاتفاق معه ، ولن يستطيع أحد أن يكسب رضا بريطانيا أو يقوم بأى عملية معها إلا عن طريقه .. هذا الفارق جعل من برعى محمود شخصية مجهولة سياسيا ، وجعل من منصور فكرى عدوا من أعداء الحركة الوطنية ومن أعداء الشعب ..

وان كان رفعت قد اكتشف بعد أن بدأ اهتمامه ببرعى محمود أنه أصدر كتابا أو تقريرا عن مجالات التعاون الجديد بين مصر وأمريكا .. كتاب يشيد فيه بنيات أمريكا ويؤكد أنها الدولة التى تقوم على مساعدة الدول الصغيرة فى بناء نفسها دون أن يكون لها مطمع فى الاستيلاء أو السيطرة عليها ، ثم تضمن الكتاب بحثا علميا عن مجالات التعاون التجارى والاقتصادى مع أمريكا .. وكان هذا الكتاب يكفى لإثارة الشكوك والاتهامات حول برعى محمود . ولكنه تعمد ألا يوزع هذا الكتاب شعبيا إنما أكتفى بأن يصل إلى الشخصيات المصرية التى يعتقد أنها قابلة للتعاون معه ؛ وذلك حتى لايعرف شعبيا أنه أمريكى ..

وأيامها عندما اكتشف رفعت بذكائه أن أمريكا فى مصر بدأ يسائل نفسه .. لماذا لاينقل نشاطه من بريطانيا إلى أمريكا .. لماذا لايسعى إلى السفارة الأمريكية حتى يكسب صداقتها واعتمادها عليه بدلا من السفارة البريطانية .. ربما كان التعامل مع أمريكا أسهل ويدر مكاسب أسخى لأنها لاتزال فى مرحلة تكوينها .. مرحلة فرض وجودها فى مصر .. ولكنه طرد هذا الخاطر عن ذكائه بسرعة .. ما فى اليد خير مما على الشجرة ..

وقد فوجىء بعد أيام من عمله فى مكتب منصور باشا فكرى بشركة الإنشاءات ، فوجىء به يستدعيه إلى مكتبه ويبادره قائلا وهو

جالس على مقعده ودون أى كلمة تحية كعادته التى اكتسبها من الرؤساء الإنجليز :

– هل جمعت معلومات عن برعى محمود ..

دهش من استدعائه لإلقاء هذا السؤال .. لقد كان المفروض أن ينتظر الباشا حتى يجمع هو المعلومات ويتقدم بها إليه دون حاجة إلى استدعائه .. هكذا أصول وتقاليد هذا النوع من العمل .. وقد دهش رفعت أكثر من لهجة الحقد التى ألقى بها الباشا سؤاله .. إنه يكره برعى محمود إلى حد لايستطيع الانتظار كما تقضى التقاليد .. إنه فى حرب معه لاتحتمل الانتظار ..

وقال رفعت وهو واقف فى مكانه دون أن يحاول فرض شخصيته بالجلوس على مقعد :

– عرفت عنه أنه أمريكانى .. بل رجل أمريكا الأول فى مصر ولا شك أنك تعرف عنه هذا لذلك لم أجد داعيا لابلاغك عنه ..

وقال الباشا فى لهجة جافة :

– وماذا عرفت أيضا ؟

وقال رفعت بعد أن زفر نفسه الضيق :

– اسمع يا باشا .. ليس من مهمتى أن أنقل إليك معلومات عادية عن برعى محمود .. من قابل وأين ذهب وماذا تم .. ليست هذه هى مهمتى .. إنها مهمة أى شخص عادى .. ولكنى أنقل إليك ما يمكن أن يصل إلى من عمليات هامة كبيرة خطيرة يقوم بها برعى .. ولم يصل إلى شىء هام حتى الآن .. وثق أنى مهتم .. اطمئن .. إنى أعلم أنك تجربنى أو أنك تضعنى فى حالة اختبار وستفرح بى .. فقط أرجوك الانتظار على ..

وزم منصور باشا فكرى بشفتيه ثم عاد والتفت بعينيه إلى الأوراق التى أمامه كأنه يأمر رفعت بالانصراف ..

وانصرف رفعت فعلا وبين شفتيه ابتسامة ساخرة ..

• • •

وكان رفعت البيومى قد بدأ فعلا يركز كل اهتمامه بتتبع أخبار برعى بك محمود ، واستطاع أن يجمع حوله بعض الشبان الذين يستطيعون أن يحدثوه عنه .. وإن كان الحديث دائما فارغا لأن برعى يتعمد ألا يكون له شخصية عامة وألا يعيش وسط مجالات الحركة الوطنية التى يعيش فيها رفعت .. بل إن رفعت كان بزلاقة لسانه يتعمد عندما يقابل الشخصيات الكبيرة أن يثير الحديث عن برعى محمود ولكنه أيضا لم يكن يصل إلى شىء سوى المعلومات العامة التى يمكن أن يعرفها غيره .. لم يصل إلى سر .. وقد استطاع

أخيرا أن يصل إلى صداقة شاب فى الخامسة والعشرين من عمره يعمل فى مكتب برعى محمود .. اسمه ممدوح طوسون .. وقد اهتم كثيرا بتوطيد صداقته بممدوح .. إنه أقرب من يعرفه إلى برعى .. وأقربهم إلى أوراق برعى .. وبنى على صداقته به أحلاما واسعة ..

وكان رفعت فى نفس الوقت يعيش قصته مع الفتاة الإنجليزية جدولين .. ابنة وكيل بنك باركليز والقصة تتسع .. وتتسع .. إلى أن وصلت إلى نهايتها ..

وقد دخل بيتها لأول مرة عندما دعته إلى تناول الشاى بعد أن كان قد دعاها فى اليوم السابق إلى نزهة الهرم وقضيا الساعات وهما متلامسان إلى أن عاش جسداهما فى احتكاك متصل وهما على ظهر جمل واحد يطوف بهما .. لقد احتار ساعتها كيف يطفىء النار التى اندلعت فى كل أعصابه وأثارت كل نقرة من جسده .. كيف يأخذها لتكون أول امرأة يأخذها فى حياته بعد الحرمان الطويل الذى عاشه العمر كله .. لم يكن حرمانا ولكنه كان مشغولا عن نفسه وعن إشباع طبيعته حتى أصبحت هذه هى عادته .. حتى أنه خجل من نفسه وهو معها على ظهر الجمل وخشى أن تعتبره مجرد رجل متوحش ، فهرب من فوق الجمل ..

وقد دهش وهو فى بيتها بأن وجد أنها وحدها .. لا أبوها ولا أمها ولا أحد آخر .. ودخل كبير الخدم « البتلر » وهو فى زيه

الرسمى كأنه رئيس الوزراء يتقدم لخدمة صاحب الجلالة .. ووضع أمامها معدات الشاى وانصرف وتركها وحدهما فوق الأريكة العريضة .. وهو يتتبع بعينيه البتلر وهو خارج .. إنه من يومها وهو يتمنى أن يكون له بتلر خاص بخدمته إلى أن استطاع أن يحقق أمنيته ..

وحاول أن يستغل موهبته فى إطالة الحديث معها ولكن ذكريات أمس .. ذكريات التلامس والاحتكاك لاتريد أن تفارقه ، بل إنها بدأت تتفاعل على أعصابه ويحس أنه يريد أن يبدأ فى إعادة التلامس والاحتكاك .. وكانت هى التى بدأت كأنها ضاقت بتردده .. وضعت يدها فى يده .. فشدها إليه لتلامس كتفه كتفها .. إنه لم يعد حائرا مترددا كالأمس .. مد ذراعيه واحتضنها إلى صدره .. ولامس خدها بخده .. ثم وصلت شفتاه إلى شفتيها .. أول قبلة له معها .. والقبلة تشتد كأنه بدأ فيها .. يأكل شفتيها .. إنها أول قبلة فى حياته ولايدرى كيف يسيطر عليها وينظمها وفقا لأصول القبل .. ولكنه يترك نفسه على طبيعته تملكه وتحكمه .. وهى مستسلمة .. وتبادله .. لا .. هناك حدود .. إنها عذراء وتصر على أن تبقى عذراء .. إنه لم يكن يعرف أنه حتى بين الفتيات الإنجليزيات عذراوات ..

وقد تباعدا بعد أن نفضا ثورة جسديهما دون أن يأخذ منها أكثر مما أرادت أن تعطيه .. إنها لاتزال عذراء وهو الذى كان بكرا

وفض بكارته .. إنها المرة الأولى فى حياته التى يجتمع فيها بامرأة وينفث معها ما كانت تلح عليه به أعصابه ..

وكانا جالسين على الأرض ملتصقين بالأريكة عندما دخل والدها وقد عاد من الخارج ونظر إليهما وبين شفتيه ابتسامة واسعة قائلا :

— هاللو ..

وقفز رفعت منطورا واقفا وهو يحاول أن يكتم رعشته .. ماذا يقول الأب وهو يرى ابنته على الأرض وبجانبها شاب .. الحمد لله أنهما لم يخلعا ثيابهما .. ماذا كان يمكن أن يفعل به الأب وماذا كان يمكن أن يقول .. ومجدولين ظلت جالسة على الأرض تستقبل ابتسامة أبيها بابتسامة أوسع وقالت :

— إنه رفعت البيومى .. هل تعرفه ..

وتقدم الأب ومعه ابتسامته ومد يده يصافح رفعت وهو يقول :

— إنك صديق لمالوكولم .. إنه يتحدث عنك باعجاب شديد .. عن إذنك ..

وخرج الأب وتركهما وحدهما كما كانا .. وألقى رفعت بنفسه على الأريكة وهو يلهث .. لعل ما جرى بينه وبين مجدولين

لايخرج عن التقاليد الإنجليزية ولايحرمها حتى أن الأب يوافق عليها ..

وقد تركها ليلتها وهما على موعد فى اليوم التالى .. إنها تريده .. وقد تركها وهو حائر فيما يجرى معها ويسأل نفسه عن مستقبل ما يجرى .. ولكنه خرج وقد طرأت على باله فكرة جديدة يجب أن يحققها .. يجب أن يكون له بيت فى مستوى بيت مجدولين .. بيت يقيم فيه وحده بعيدا عن إخوته وعائلته .. وهو يستطيع الآن أن يكون له بيت فى مستوى بيوت الطبقة الراقية الأرستقراطية .. إن دخله وصل إلى مائة جنيه فى الشهر .. وهو ما يكفى ليكون له مثل هذا البيت ..

ومن ساعتها بدأ البحث عن شقة فى حى من الأحياء الراقية .. ووجدها فى جاردن سيتى .. لقد بدأ حياته فى كفر البطيخ .. ثم فى حى الدراسة .. ثم فى حى الظاهر .. والآن وصل إلى جاردن سيتى .. إنها نعمة الذكاء .. وإيجار الشقة أثنا عشر جنيها فى الشهر .. كانت هذه أيامها أسعار الإيجارات الغاليه .. وهو سيعيش فيها وحده ويبقى عائلته فى شقة حى الظاهر .. ولن يبخل عليهم .. سيستمر فى إعالتهم .. عشرة جنيهات فى الشهر أكثر ما يدفعه أبوه من إيرادات كفر البطيخ .. وسيبقى له ما يكفيه من المائة جنيه ... ما يكفى مظاهره التى يحتاج إليها ..

وقد تعمد قبل أن يوقع عقد الإيجار أن يصحب مجدولين إلى الشقه لتبدى رأيها فيها .. إنها ستكون شقتها .. بيتها .. هكذا قال لها ..

وقد كانت مجدولين قد ملأت حياته كلها .. حياته بعيدا عن عمله .. كانا يلتقيان كل يوم تقريبا .. وكانت تدعوه إلى البيت فى كل مناسبة حتى أحس كأنه صديق لأبيها ولأمها ولو أن صداقتها صداقة إنجليزية باردة .. وكان يدعى فى جميع الحفلات والسهرات التى يقيمونها ،وكان حريصا على أن يسأل عن أسماء باقى المدعوين حتى يضع حدودا لإشاعة صداقته بالإنجليز .. وما بينه وبين مجدولين مستمر كلما وجدا نفسيهما وحدهما فى بيتها حتى أصبح يتم دون افتعال كأنه شىء طبيعى .. كأنه يحدث بين زوج وزوجته وإن كانت لاتزال مصرة على أن تبقى عذراء .. وكان نهما فى انطلاقه معها كأنه فى حاجة إلى تعويض السنوات الطويلة التى قضاها فى جوع .. أو بعيدا عن طبيعة رجولته ..

ولكن ..

هل يتزوجها ؟

إن مجدولين لا تثير موضوع الزواج ولا تعبر أبدا عن رغبتها فى أن تتزوجه .. ولكنها قطعا لن ترفض الزواج إذا عرضه عليها .. وهو لن يتزوجها لأنها جميلة .. إنه يعرف انها ليست جميلة .. ولن

يتزوجها لأنه يحبها إنه لا يعرف الحب .. لا يعرف إلا ما يحقق به أهدافه وأحلامه .. ولكنه يفكر فى أن يتزوجها لأنها إنجليزية .. إن معظم الذين وصلوا إلى القمم فى مصر كانوا متزوجين من إنجليزيات .. منصور باشا فكرى متزوج من إنجليزية .. إن الزواج من انجليزيه يعتبر كأنه زواج من بريطانيا كلها فتفتح له كل أبواب بريطانيا .. ومجدولين رغم كل شىء قريبة مما يرضى التقاليد التى تعينه على اختيار زوجته .. إنها على الأقل لا تزال عذراء .. ثم إنها خلال كل تلك الأيام أصبحت معه فى كل شىء .. فى كل فكره وعاداته ومزاجه .. كأنها فعلا أصبحت نصفه الآخر .. ولكن .. لا .. إن زواجه من إنجليزية يؤكد انتماءه إلى بريطانيا .. يجعله يبدو أمام الناس،وخصوصا أفراد الحركات الوطنية كأنه أصبح إنجليزيا.. لا .. يجب أن يبدو كأنه وطنى متحفظ متزمت لا يمكن أن يرضى لنفسه أن يتزوج إنجليزيه ولو كانت ملكة بريطانيا نفسها .. يجب أن يبدو كأن مصريته مصرية طاغية عليه متمكنة منه بحيث لا يمكن أن يتزوج إلا مصرية ..

ورغم ذلك فهو لايزال يفكر فى الزواج من مجدولين ..

وهو يتذكر يوم أخذها معه لتبدى رأيها فى الشقة الجديدة بحى جاردن سيتى .. لقد فرحت بها .. ثم بدأت تشاركه فى تأثيثها .. بل ربما كانت هى التى أثثتها .. كانت تحمل له قطع الأثاث واللوحات التى تعلقها على الحائط والتحف التى تنثرها هنا وهناك ..

ولم تكن تطالبه بثمن ما تأتى به .. وحتى لم تكن تعتبر ما تأتى به كأنه هدايا .. إنها تحس وتعلن أحساسها بأنها فى بيتها .. بيتهما معا .. البيت الذى تفيض فرحتها به على كل تصرفاتها .. حتى أنها أصبحت تحمل مفتاحا للشقة خاصا بها .. مادام البيت بيتها ..

وهو يذكر والشقة لم يكتمل تأثيثها وليس فيها إلا مقعد أو مقعدان أن كانا هناك عندما ثارت بينهما رغبة التلامس فاحتضنها وترك نفسه لمنتهى عنفه كما عودها إلى أن يصل إلى ما يدفعها إلى مقاومة هذا العنف .. ولكن من يومها وهما راقدان على أرض الحجرة .. أرض خشبية بلا سجاد .. يومها لم تقاومه أبدا .. بل عاشت كل عنفه حتى وصلت بنفسها إلى المنتهى .. منتهى العنف ..

ولم تعد عذراء ..

ولم يبد عليها شىء من الحسرة أو الندم .. لم تبد كأنما ضاع منها شىء أو كأنها ضحت بشىء .. أن هذا كان ما تريده وما قررته هى .. لم يغتصبها .. إنها أقوى من أن تستسلم لاغتصاب .. وقد بدأ يفكر فى الزواج بها أكثر ..

إنه هو المسئول ..

هو الذى جعل منها امرأة ليست عذراء ..

ثم إنه يستطيع أن يجد ما يبرر به زواجه محتفظا بصورة الشخصية المصرية متكاملة ..

وقد بدءا يتحادثان فعلا عن الزواج .. ولكنهما لا يتحادثان جادين إنما يتعمدان أن يكون حديثهما كأنهما يتضاحكان ..

. . .

وعثر رفعت على سر من أسرار برعى بك محمود .. وقد كشف له عن السر صديقه الجديد ممدوح طوسون الذى يعمل فى مكتب برعى .. ولكن ممدوح لم يكن يتصور أنه يكشف عن سر .. كان يتصور أنها مجرد عملية عادية .. عملية بيع وشراء .. ولكنها سر هائل ..

كان برعى محمود قد بدأ يعد لعقد صفقة توريد أسلحة إلى مصر .. أسلحة أمريكية .. وقد استطاع أن يقيم علاقات قوية مع كثير من ضباط الجيش الذين يتولون مراكز إدارية .. بل إنه وطد علاقته مع وزير الحربية .. وصفقات الأسلحة لاتتم إلا بعد توزيع إغراءات سخية على المسئولين .. لاشك أن برعى قد وعدهم بعمولات هائلة .. رشاوى .. ومعروف أن أمريكا سخية فى تعاملها مع الوسطاء والمسئولين ..

وهى أول مرة فى التاريخ يمكن أن تصل فيها أسلحة أمريكية إلى مصر .. إن بريطانيا وحدها هى المسئولة عن تسليح الجيش المصرى .. إنها تحتكر تسليح الجيش .. بل إن تسليح الجيش يدخل ضمن مخطط الأمن لحماية الاحتلال .. لاتسمح بريطانيا أبدا بأن

يكون الجيش المصرى أقوى من الاحتلال أو أن يصبح فى حالة يستطيع بها أن يعكر أمن الاحتلال .. وكانت بريطانيا تتساهل أحيانا فى أن تترك لمصر الحرية فى إستيراد السلاح من أسبانيا أو من إيطاليا .. بل ربما كانت تشترك فى هذه العمليات حتى تتأكد من أن الأسلحة التى تصل مصر لاتساوى شيئا إلا مجرد المظهر .. مظهر التسليح .. وكلها أسلحة خفيفة وقديمة وفاسدة .. بل إنها تركت المقاتلين المصريين أيام حرب ١٩٤٨ مع إسرائيل يسرقون الأسلحة من ثكنات الجيش البريطانى .. وكانت تعلم مقدما قيمة هذه الأسلحة بالنسبة للمعركة وبالنسبة لتحقيق سياستها التى تفرض إقامة دولة إسرائيل .

ولكن هذه هى أول مرة تحاول فيها مصر استيراد الأسلحة من أمريكا .. وكأن أمريكا ستحل محل بريطانيا فى تسليح الجيش المصرى وهو مايمهد لتحل محلها فى السيطرة على مصر .. هل توافق بريطانيا على مثل هذه الصفقة .. لم لا .. إن بريطانيا فى تحالف مع أمريكا ولعلها اتفقت معها على أن تورد إلى مصر نفس الأسلحة الخفيفة الفاسدة ومتفقة معها على حماية أمن الاحتلال .. ولكن .. هل اتصل برعى محمود بالسفارة البريطانية بخصوص هذه الصفقة كما يتصل قطعا بالسفارة الأمريكية .. هل تعلم بريطانيا بهذا السر الهائل .. إنه لايدرى ..

المهم أن يبلغ الخبر حالا إلى منصور باشا فكرى .. قد يذهل للخبر ويخرج رفعت من هذا الذهول باعتراف منصور باشا به وتقديره له .. ولكن قبل أن يبلغ منصور باشا بالخبر يجب أن يبلغه أولا للسفارة البريطانية .. إنه لايقبل أن تصل معلوماته إلى السفارة عن طريق منصور فكرى .. يجب أن يحتفظ بعلاقته المباشرة بها .. وإلا فقد السفارة واستغنت عنه وأصبح كأنه خادم من خدم منصور فكرى ..

وذهب إلى شقته فى جاردن سيتى .. ورغم أن الساعة كانت قد جاوزت العاشرة فقد كان مصمما على أن يضفى على الخبر أهمية خاصة ، فرفع سماعة التليفون وطلب صديقه مستر مالوكولم ، وقال وهو يتعمد أن يضمن لهجته رنة الخطورة :

— آسف لإزعاجك .. ولكنى أعتقد أنه خبر هام ..

وروى الخبر لمالوكولم .. واطمأن سعيدا عندما فهم أن مالوكولم فوجىء به .. لم تكن السفارة البريطانية تعلم شيئا عن هذه الصفقة .. وقال له مالوكولم فى صوت تهزه المفاجأة :

— هل أنت متأكد مما تقول ..

وقال رفعت بلهجة يستر من خلالها فرحته :

— متأكد من كل كلمة ..

وقال مالوكولم فى حدة كأنه خرج عن هدوئه الذى عرف به :

– من أين جئت بهذه المعلومات ؟

وقال رفعت وهو ينبهه بثقته فى نفسه وفى ذكائه :

– من نفس مكتب برعى محمود ..

وقال مالو كولم وكأنه ساهم :

– سنرى ما يمكن عمله .. شكرا ..

ولاحقه رفعت قائلا قبل أن ينهى المكالمة :

– هل أبلغ الخبر لمنصور باشا .. إنه يهتم دائما بكل ما يخص برعى ..

قالها رفعت كأنه يستأذن بوصفه رجل السفارة لا رجل منصور فكرى .. وقال مالو كولم فى هدوء :

– أبلغه .. لاشك أنه سيكون له دور كبير فى هذه العملية .. أكرر شكرى .. وإلى اللقاء ..

ووضع رفعت سماعة التليفون ثم عاد بعد أن التقط أنفاسه ورفعها وأدار رقم منصور باشا فكرى ، رد عليه الخادم قائلا :

– إنه نائم ..

وقال رفعت فى حدة :

– أيقظه .. إنه موضوع هام .. قلت لك أيقظه ..

وترك الخادم سماعة التليفون وظل رفعت منتظرا فترة إلى أن سمع صوت منصور فكرى فقال له فورا دون أن يمهد بتحية المساء أو الاعتذار على إيقاظه :

– أريد أن أراك حالا .. الآن ..

وقال منصور باشا وهو يتثاءب :

– ألا تستطيع أن تنتظر حتى الصباح ..

وقال رفعت بسرعه :

– لولا أهمية الخبر لما تجرأت على إزعاجك فى مثل هذه الساعة ..

وقال منصور باشا فى ضيق :

– أى خبر .. لنتكلم فى التليفون ..

وقال رفعت كأنه يلومه :

– لا .. لا أستطيع أن أتكلم فى التليفون .. وأنت تعرف حال التليفونات ..

وقال منصور باشا كأنه استسلم رغم أنفه :

– تعال .. سأنتظرك ..

وكان رفعت يتعمد أن يزعج منصور باشا وأن يفرض على منصور باشا استقباله فى هذه الساعة حتى يضفى على الخبر أهميته

الخاصة .. إن تبادل الأسرار الخطيرة لايتم إلا فى الليل وفى الخفاء .. وهو ذكى لايتهاون فى أسراره ويفقدها قيمتها ..

واستقبله منصور باشا وهو متراخ يتعجل النوم ولكنه ما كاد يسمع الخبر حتى انتفض من المفاجأة فاستيقظ كله وانطلق بريق عينيه وهو يقول :

— لايمكن .. إن تسليح الجيش هى مهمة قاصرة علينا وحدنا ..

ويقصد أنها مهمة بريطانيا وحدها .. وأخذ يستزيد رفعت من معلوماته إلى أن قال فى حدة :

— هذه الصفقه لن تتم .. على جثتى .. وسأعلم برعى محمود كيف يلتزم حدوده .. إنه يحلم بعالم جديد وسأفيقه من أحلامه ..

وخرج رفعت من لديه وهو مستغرق فى التفكير حول العلاقات بين بريطانيا وأمريكا .. إنهما حليفتان ولم يكن يتصور أن العلاقة بين الحلفاء يمكن أن تصل إلى حد المعارك حتى لو كانت معارك تحتية .. على كل حال فان ما اكتشفه بين بريطانيا وأمريكا يفتح له مجالات جديدة واسعة للعمل .. وإن كان لايدرى بعد كيف يمكن أن يستفيد من هذه المجالات ..

وانتظر فى صمت وتباعد مايمكن أن يحدث .. ومر يوم وفى اليوم التالى بدأت الإشاعات عن أزمة وزارية تهدد باستقالة الوزارة

دون أن تصل الإشاعات إلى أسباب هذه الأزمة .. ومع الأيام لم تستقل الوزارة ولكن استقال وزير الحربية وحده .. أو عزل .. طرد .. وقامت حركة تغيير واسعة بين المسئولين داخل وخارج الوزارة ..

وعرف رفعت أن صفقة استيراد السلاح من أمريكا قد فشلت .. أغلقت فى وجهها كل الأبواب .. ولعل الأزمة وصلت إلى لندن وإلى واشنطن قبل أن تنتهى بالفشل .. وهو .. رفعت .. إنه صاحب الفضل فى القضاء على هذه الصفقة .. ولم ينتبه أى إحساس بلوم نفسه لأنه تسبب فى حرمان الجيش المصرى من أمداده بالأسلحة الأمريكية .. إنها أسلحة سواء كانت أمريكية أو بريطانية لايمكن أن تصل بالجيش المصرى إلى أكثر مما يريده له الحليفان .. وهما يريدان دائما أن يكون الجيش المصرى جيشا تابعا لها أو لأحدهما .. وما جرى بينهما ليس أكثر من المعارك الطبيعية التى تجرى فى الأسواق .. الأسواق السياسية .. حتى فى أسواق الحلفاء ..

المهم ماذا سيخرج رفعت من هذه العملية ..

إنه يستحق مكافأة هائلة من بريطانيا .. إنه أنقذها سياسيا بالاحتفاظ بسيطرتها على مصر وأنقذها اقتصاديا بالاحتفاظ لها باحتكار توريد السلاح .. ولكنه كان من الذكاء بحيث لم يتقدم

بطلب مكافأة .. إنه يحتفظ بمظهر شخصيته حتى لايبدو كأنه شحاذ يشحذ ..

وذهب إلى لقاء مستر مالوكولم يحمل إليه أوراقا تحمل معلومات هامة سجلها على الآلة الكاتبة الانجليزية .. إنه يتعمد دائما أن يحمل إليه أخبارا هامة كلما كان يريد منه شيئا.. وبعد أن انتهى معه من تفاصيل المعلومات بذلاقة لسانه يتحدث عن حياة العمل فى شركات منصور باشا فكرى..وقاطعه مالوكولم فى بساطة وبراءة كأنه يتحدث كصديق لا كمسئول عن رشوته :

— هل وجدت العمل الذى تستطيع أن تتفرغ له ..

وقال رفعت فى بساطة أيضاً :

— الواقع أنى استفدت كثيرا من دراسة نواحى العمل فى شركات منصور باشا .. وقد بدأت أفكر فى الحصول على توكيل لإحدى الشركات الأجنبية .. وقد قدرت أن أختار أن أكون وكيلا فى مصر لسيارات موريس ..

وضحك مالوكولم قائلا :

— لماذا سيارات موريس .. إنها سيارات صغيرة وضعيفة ..

وقال رفعت باسما :

— ربما لهذا اخترتها .. فهى تدخل ضمن توكيلات شركات منصور باشا .. ولكن الدخل الذى تحققه للشركة تافه لايمكن أن

يؤثر فى ميزانية منصور باشا، ولذلك فكرت أن أستأذنه فى أن يكون التوكيل لى حتى أبدأ التجربة .. ولو أنى لم أبدأ المحاولة بعد فى انتظار أن أنتهى من تقدير مدى اهتمام منصور باشا بى وصداقته لى .. لم أحادثه فى الموضوع بعد ..

وقال مالوكولم وهو يربت على كتف رفعت كأنه يشفق عليه :

— حادثه .. وسأتصل به ..

وقد انتظر بعدها يومين لعل منصور باشا فكرى يستدعيه إلى مكتبه بعد أن يكون مالوكولم قد اتصل به .. ولكنه لم يستدعه حتى يسأله عن أخبار غريمه برعى بك محمود .. وقرر رفعت أن يطلب هو مقابلته ودخل إليه حاملا معلومات جديدة عن أخبار فشل صفقة توريد الأسلحة الأمريكية على برعى بك .. ليست معلومات هامة ولكنها بلا شك تفرح منصور باشا ..

وفرض رفعت حتى دعوته إلى الجلوس على مقعد .. ومنصور باشا يستمع إليه وقد علق على شفتيه ابتسامه باردة هى كل مايستطيع إعطاءه لرفعت اعترافا بفضله .. ثم قال له مقاطعا كأن المعلومات التى يسمعها منه لاتهمه :

— سمعت أنك تريد أن تحصل لنفسك على توكيل سيارات موريس ..

وقال رفعت وكأنه لايبالى :

— إنها مجرد فكرة خطرت لى ..

وقال منصور باشا كأنه ينهى الموضوع :

— انى موافق .. وسنرسل إلى الشركة بتزكيتك وكيلا .. ولكنك فى حاجة إلى ضمان من البنك .. وأنا أعرف أنك لاتملك أى قوة فى أى بنك .. وأنا لن أضمنك ولن أكفلك .. ليست هذه من عادتى ولا من نظم شركاتى .. وسأتركك تعتمد على نفسك مادمت تريد أن تدخل تجربة جديدة ..

وخرج رفعت وهو حائر :

لقد كان يعتمد على أن يحصل على توكيل شركة السيارات من خلال شركة منصور باشا .. ولكن منصور باشا يتركه وحده .. كأنه يطرده .. فمن أين يأتى بالرصيد الذى يضمن له هذا التوكيل .. هل يؤلف شركة يضم إليها بعض الممولين ممن يعرفهم .. ولكن الممولون قد يستهيفون به ويعاملونه كشحاذ .. إنهم لايعلمون حقيقة قوته التى يعتمد عليها .. لايعلمون أنه من أقرب أصدقاء السفارة البريطانية .. ولن يصارحهم بحقيقته طبعا ..

وفى نفس المساء اتصل به مالوكولم فى التليفون وقال له بصوت مرح :

— لماذا لم تتصل بى .. إنى عرفت بشروط منصور باشا حتى يساعدك فى مشروعك .. اتصل بصديقنا مستر مايكل وكيل بنك باركليز وسيعد لك كل شىء ..

وارتفعت ضحكة مالوكولم وهو يستطرد قائلا :

— إنى أعرف أنك صديق لمايكل أو على الأصح صديق ابنته مجدولين وهى كل شىء بالنسبة لمايكل ..

وفرح رفعت بما سمعه واسترد معه آماله .. واتصل ساعتها بمجدولين .. أو ماجى كما أصبح يدللها .. ودهش عندما وجدها تعرف كل شىء وهى تؤكد له أن البنك سيضمن له توكيل سيارات موريس .. إن والدها أكد لها أن البنك موافق .. وقد قابل والدها فى اليوم التالى الذى استقبله بترحاب وقال له أن البنك سيكلفه بضمان البضائع التى يستوردها .. أى بضمان مايستلمه من سيارات موريس .. وتولت ماجى بنفسها بعد ذلك تحريك كل الأوراق حتى أصبحت العملية كلها فى يده ..

أصبح لأول مرة رجلا من رجال الأعمال ..

وقد كانت العملية صغيرة لم تحقق له إلا أرباحا بسيطة .. إن أفخم سيارة موريس لم تكن تباع فى مصر بأكثر من خمسمائة جنيه .. هكذا كانت أسعار السيارات أيامها .. ولم يكن يحقق فى كل سيارة ربحا أكثر من خمسين جنيها.. ورغم ذلك فقد كانت فرحته

بهذه الأرباح أضعاف فرحته بما حققه بعد ذلك من أرباح الملايين ..

وكان الفضل كله لماجى ..

لماذا لايتزوجها ..

إنه لو تزوجها فسيصبح بنك بار كليز كله فى يده وهو فى حاجة الآن إلى بنك، بل إلى كل البنوك مادام قد أصبح من رجال الأعمال..

إلى أن فوجىء بالصدمة الكبرى ..

لقد قتلوا منصور باشا فكرى ..

اغتالوه فى وضح النهار ..

• •

وكان رفعت البيومى قد انتهى من تناول طعام العشاء وانتقل وجلس غاطسا فوق الأريكة فى البهو .. وقدم له البتلر كأس البرمنت .. كأس كحول النعناع الذى تعود أن يشربه بعد العشاء .. ورفع الكأس فى يده وشفتاه مزمومتان وهو يعيش ذكرى صدمته .. ذكرى اغتيال منصور باشا فكرى ...

(٤)

كان أشد ما صدم رفعت البيومى عندما سمع باغتيال منصور باشا فكرى هو وقع المفاجأة .. إنه يعلم أن منصور باشا يعتبر عدو الشعب رقم واحد منذ أن بدأ يعرف ويجاهر بأنه رجل الإنجليز رقم واحد .. ورغم ذلك فلم يكن ينتظر اغتياله، وكان يعتقد أنه فى تقدير الحركة الوطنية يعتبر رجلا مفضوحا تافها لاشخصية له ولايستطيع أن يؤثر تأثيرا فعليا على الحركة الوطنية .. والأهم أنه لايستطيع أن يكون زعيما أو رئيس حزب يمكنه أن يتولى قيادة الجماهير والاتجاه بهم فى طريق الخيانة الوطنية .. حتى بعد أن بدأ فى تكوين حزب سياسى لم يقترب منه إلا أفراد معروفون من أصحاب المصالح مع الإنجليز وليس لواحد منهم أى قيمة شعبية .. ولاحتى يستطيع واحد منهم أن يلقى خطابا فى تجمع جماهيرى مفتوح إنما إذا تكلم أحدهم فلا يتكلم إلا فى حفل رسمى حكومى تحت حماية

البوليس .. ورغم ذلك اغتيل منصور باشا فكرى .. والذى يحز فى نفسه أنه لم يحذر الإنجليز أو منصور باشا نفسه من هذا الاغتيال كما سبق أن حذرهم قبل وقوع كثير من الأحداث الهامة .. واغتيال منصور فكرى حدث هام ولاشك .. ومفاجأته بهذا الاغتيال لاشك تفقده قيمته عند أصدقائه الإنجليز وتهز ثقتهم به . . لم يعد الصديق الذى يمدهم بأهم وأصدق المعلومات .. وقال لنفسه فى غضب على نفسه أنه ربما بعد أن أصبح رجل أعمال ووكيلا لشركة أرستن فى مصر أهمل فى التفرغ لعمله الأساسى .. الرجل الذى يجمع المعلومات .. وقد أهمل فعلا .. إن اتصالاته بمصادر أخباره قد خفت واندماجه فى التحركات الوطنية على اختلاف اتجاهاتها قد فتر ..

ولكن ..

إذا كان قد عجز عن اكتشاف نية اغتيال منصور باشا فكرى فيجب أن يثبت ذكاءه وموهبته باكتشاف أسرار عملية الاغتيال .. وكان البوليس قد قبض على كل الأفراد الذين قاموا بالعملية .. إنهم كلهم من الشبان ولم يسبق له أن عرف أو التقى بواحد منهم رغم العشرات الذين يعرفهم من الشبان الوطنيين الفدائيين الذين يمكن أن يقدموا على قتل أعداء الوطن أو أعداء الحزب .. وقد قال هؤلاء الشبان فى التحقيق أنهم لاينتمون إلى أى حزب من الأحزاب ولا إلى أى تنظيم .. إنهم من الوطنيين المستقلين الأحرار .. لاشك أنهم

يكذبون .. وحتى لو كانوا فعلا من المستقلين الأحرار فان أى عملية تتم مفروض أن يكون وراءها محرض ومخطط ومنظم .. فمن هو أو من هى الجهة التى حرضت وخططت ونظمت لهؤلاء الشبان حتى قاموا باغتيال منصور باشا ..

وكان من أول ما أثار فكره أن كل هؤلاء الشبان ينتمون إلى الطبقة الراقية أو إلى مستوى قمة الطبقة المتوسطة .. إنهم من أولاد الذوات .. ليسوا من الطبقة الشعبية التى تتحمل مسئولية تنفيذ العمليات الوطنية أو الحزبية .. وربما لهذا لم يلتق بهم من قبل فقد كان يحصر تحركاته داخل الطبقة الشعبية .. وطبقة أولاد الذوات حتى لو كانوا من أعضاء الأحزاب يترفعون عن القيام بالعمليات الحزبية الشعبية .. إنهم يضعون أنفسهم داخل الأحزاب فى مستوى القيادات .. يكفى مجرد وجودهم فى انتظار أن يصل الحزب إلى الحكم فيصبح كل منهم وزيرا .. إن غرائزهم الأرستقراطية الرأسمالية المتعالية تتحكم فيهم بالنسبة لأى قضية وطنية .. بل إن له صديقا شابا من أولاد الذوات انضم إلى تنظيم شيوعى .. ربما لأن أفراد التنظيم أشبعوا فيه غريزة التعاظم والإحساس بأهمية نفسه ووجوده .. وكان هذا الشاب يملك إرثا عن أبيه أكثر من ألف فدان من الأراضى الزراعية الخصبة السخية .. وقد سأله مرة مدعيا البراءة .. هل توزع الأرض على الفلاحين أو على الأصح توزع عليهم دخل الأرض كما تفرض المبادىء الماركسية .. وثار ابن

الذوات الماركسى رافضا مجرد الفكرة، وبرر ثورته بأن توزيع توزع أرضه ليس من الأهداف الماركسية ويجب أن تبقى الأرض فى يده إلى أن يقتنع الشعب بأن الأرض لاتوزع عن طريق الإحسان أو البقشيش، أو لأن هناك صاحب أرض يريد توزيعها بل الأرض لاتوزع إلا بقيام ثورة ماركسية تستولى على كل أرض مصر .. وفى نفس الوقت كان معروفا عن هذا الماركسى ابن الذوات أنه من أبخل البخلاء ومن أعنف أصحاب الأرض فى محاسبة الفلاحين .. المبادىء مظاهر والانتماء الطبقى غريزة ..

فمن الذى حرض هؤلاء الشبان أولاد الذوات ونظم لهم وخطط عملية اغتيال منصور باشا ؟

واعتمادا على عبقرية ذكائه استطاع بسرعة أن يكتشف بذور الحقيقة .. ولكنه يجب أن يتأكد .. وتفرغ للوصول إلى أوسع المجالات التى يمكن أن يستقى منها المعلومات .. إلى أن تأكد ..

إن الذى حرض ونظم وخطط عملية اغتيال منصور باشا هو القصر الملكى .. وبعلم الملك فاروق نفسه .. وكان يعرف أن القصر قد أقام منذ سنوات تنظيما سريا أصبح يعرف بين التنظيمات باسم « الحرس الحديدى » .. وكان تنظيما يدعى التطرف الوطنى حتى يبرر تهديد كل الشخصيات الوطنية ، بل إن هذا التنظيم كان يعارض أحيانا تصرفات القصر الملكى حتى ينفى عن نفسه شبهة الانتماء إليه .. وكانت أغلبية أفراد هذا التنظيم — كما اكتشف

رفعت فيما بعد — ينتمون أيضاً إلى الطبقة الراقية أو المستوى الأعلى من الطبقة المتوسطة .. نفس الطبقة التى ينتمى إليها قتلة منصور باشا .. ولكن الواقع — كما اكتشفه رفعت — هو أن القتلة لم يكونوا من أفراد الحرس الحديدى .. ولكن قيادة الحرس عرفتهم بتهورهم واندفاعهم وهوايتهم لإطلاق النار تأثرا بأفلام السينما الأمريكية فسلط عليهم أحد أفراده الذى استطاع أن يدفعهم لقتل منصور فكرى .. وهم لم يقتلوه لأن الملك يريد قتله بل لمجرد أنه عميل إنجليزى خائن ومن أعداء الشعب .. إلى هذا الحد كانوا سذجا .. وطنيين لاسياسيين ..

ولكن .. لماذا كان فاروق يريد قتل منصور فكرى .. ربما لمجرد أنه يستغل علاقته بالإنجليز فى خدمة حزب الوفد متجاهلا القصر حتى يكاد يقضى على كل ما للقصر من قوة .

وجمع رفعت البيومى كل هذه المعلومات وزودها بأدق التفاصيل وسجلها فى صفحات متعددة كتبها بالآلة الكاتبة الانجليزية وقدمها إلى صديقه مالوكولم ممثل السفارة البريطانية ..

وربما كانت السفارة البريطانيه تتجه إلى نفس الاتجاه الذى يرمى إلى اتهام القصر بقتل منصور باشا .. ولكن هذا الاتجاه تأكد بالمعلومات التى قدمها رفعت .. ثم تأكد أكثر بسير محاكمة المتهمين فقد استطاعوا بنفوذ القصر أن يهربوا كلهم دون أن ينال أى منهم

أى حكم .. حتى رجال القصر أنفسهم كانوا يدافعون عنهم فى أحاديثهم وإجراءاتهم .. ولم تبد أى محاولة للثأر لمقتل منصور باشا بتتبع قاتليه .. إن منصور باشا لم يكن له حزب .. ولا صديق .. كل من عرفوه كانوا يعرفون الإنجليز .. لا يهم منصور إنما يهمهم الإنجليز ..

ولكن بريطانيا هى التى قررت الثأر لاغتيال منصور فكرى ..

من يومها لم يستطع الملك فاروق أن يحكم .. وكان لا يستطيع أن يقيم وزارة تحكم . كل شهر أو شهرين يبحث عن وزارة جديدة. وربما كان السبب هو جهل فاروق نفسه وتفاهة وانحطاط شخصيته ولكن السبب الأول والأهم هو الإنجليز كانوا قد قرروا الاستغناء عنه ..

ويضحك رفعت البيومى سعيدا متباهيا بنفسه .. لقد كان السبب فى القضاء على فاروق..ولو أنه لم يكن يعرف شيئا عن الثورة...ولا الانجليز أيضا كانوا يعرفون ..

وقد كان مقتل منصور باشا هو نقطة التحول الكبيرة فى مستقبل وشخصية رفعت البيومى .. لقد ارتفع مدى اعتماد الإنجليز عليه .. بل إنه فى الواقع حل محل منصور فكرى فى الاعتماد عليه .. أصبح واقعيا رجل الإنجليز الأول .. ولكن ذكاءه كان قد تزود من تفاصيل حياة منصور فكرى .. إنه لن يكون أبدا مثله حتى لو تحمل كل مسئولياته ..

وكان الدرس الأول الذى تعلمه هو ألا يعرف عنه أبدا أنه رجل الإنجليز رقم واحد وإلا أصبح عدو الشعب رقم واحد وقتلوه كما قتلوا منصور فكرى .. وهو منذ البداية وهو يراعى إخفاء كل علاقاته بالإنجليز حرصا على علاقاته بالوطنيين .. وهو الآن بعد أن أصبح من رجال الأعمال فى حاجة أن يبذل مجهودا أكبر فى إخفاء نفسه ، فقد أصبح فى حاجة إلى شخصيته الإنجليزيه ليتعامل فى مجال الأعمال ولكنه أيضا فى حاجة إلى إخفاء هذه الشخصية حرصا على مكانته السياسية الوطنية وحماية نفسه .. والإنجليز أنفسهم يجب أن يعدلوا من معرفتهم منه وتقديرهم لشخصيته .. يجب أن يفهموا أنه ليس عميلا ولا جاسوسا ولكن يعاملونه على أنه صديق لهم .. وفرق كبير فى المعاملات الدبلوماسية بين العميل والصديق .. إن العميل أو الجاسوس موظف عندهم يتقاضى راتبا محددا عن خدماته. أما الصديق فليس موظفا لديهم .. إنه مجرد صديق حر يسعون وراءه أكثر من أن يسعى وراءهم .. ثم إنه لا يتقاضى منهم راتبا أو أتعابا تقدم له فى أظرف مغلقه تضم جنيهات .. بل يتقاضى منهم خدمات وتسهيلات للأعمال التى يقوم بها .. أى أنه لم يعد مضطرا مثلا إلى أن يكتب معلومات على الآلة الكاتبة ويقدمها إلى صديقه مالوكولم .. يكفى أن يجتمع به كصديق ويتحدثا حديث الأصدقاء ويضمن حديثه كل معلوماته..وعلى مالوكولم أن يستفيد من هذه المعلومات دون أن يقدمها له فى ورقة مكتوبة.. وقد اقتنع أصدقاؤه

باتجاهه الجديد .. فهموه .. إن كثيرا من العملاء يتطورون ويصرون على أن يرتفعوا إلى درجة الأصدقاء ..

وكان الدرس الثانى الذى تعلمه هو ألا يتخذ أبدا موقفا سياسيا محددا معلنا يعرف به .. يجب أن يتجنب أن ينسب نفسه أو ينسبه الناس إلى جهة معينة فى مجالات السياسة الداخلية .. أى ألا ينسب إلى القصر .. أو إلى حزب من الأحزاب .. أو إلى أى تنظيم من التنظيمات .. كما هو حريص ألا ينسب إلى الإنجليز أو الأمريكان .. وإلا قتل كما قتل منصور باشا الذى قتله القصر لأنه كان مرتبطا بحزب الوفد .. يجب إن يكون على اتصال بكل الأحزاب وكل الهيئات ويترك كل هيئة تعتقد أنه أحد رجالها حتى وإن لم يقبل أن يكون فردا من أفراد التنظيم التابع لها .. ولذلك ظل حتى بعد أن أصبح شخصية كبيرة معروفة يرفض أى منحة تحاول إحدى الجهات أن تسبغها عليه .. رفض رتبة البكوية التى حاول رجال القصر أن يكسبوه بها . ورفض أن يكون وزيرا رغم أن أكثر من حزب عرض عليه الوزارة .. لايريد أن يكون أو أن يعرف بأكثر من أنه رجل أعمال ..

وقد اتسعت أعماله وامتدت بشكل عجيب وبسرعة مدهشة .. وكان الإنجليز قد اعتبروه فعلا خليفة منصور باشا فكرى بل إنه أخذ فعلا كثيرا من التوكيلات الخارجية التى كانت لمنصور فكرى . توكيلات الاستيراد علاوة على السيطرة على كثير من المنشآت ..

كانت أى مناقصة لمشروع حكومى يتقدم بها ترسو عليه .. وقد تحمل بذلك عداء كثير من رجال الأعمال من مقاولى المشروعات الحكومية .. ولكنه لم يهتم بهم .. ليس لهم قوة شعبية أو رسمية يستطيعون أن يحاربوه بها ..

وفى الوقت نفسه وخلال اتساع أعماله بدأ يكون تنظيما داخل شركاته وأعماله لجمع المعلومات .. كل أنواع المعلومات .. إنها فكرة أخذها أيضا من منصور باشا فكرى رحمه الله .. إنه هو نفسه عين فى مكتب منصور باشا كرجل معلومات وبتوصية من السفارة ... ولكنه لن يكون كمنصور باشا .. لن يترك للسفارة حق وضع رجالها فى شركاته كما سبق أن وضعته هو .. إنه يريد أن يحتفظ باستقلاله حتى يستطيع أن يحمى نفسه .. كثير من الملابسات والظروف التى يقدرها فى رسم حياته لا يقدرها ولا يفهمها الإنجليز فيجب أن يحتفظ باستقلاله فى كل ما يخصه .. ولا شك أن الإنجليز سيفهمونه ويقدرونه .. وعندما اتصل به مالوكولم وطلب منه لأول مرة تعيين شخص ـ نسى اسمه ـ موظفا فى شركته اعتذر .. رفض .. وفى لقاء خاص مع مالوكولم أقنعه بألا تحاول السفارة فرض أى موظف عليه ، وهو كفيل بأن يجمع الموظفين الذين يمدونه ويمدون السفارة بالمعلومات .. واقتنع مالوكولم بسرعة .. إن الإنجليز يأخذون كل عميل أو صديق بعقليته ويستسلمون لهذه

العقلية ماداموا يستفيدون منه حتى إذا انتهى ما يستفيدونه منه تخلوا وطردوه من دنياهم هو وعقليته ..

وقد بدأ رفعت البيومى يكون التنظيم الخاص به معتمدا على ذكاء مدهش .. إنه يختار أفراد التنظيم من الشبان المعروفين بتطرفهم الوطنى أو بتاريخهم الوطنى .. الشبان الذى عرفهم وصادقهم منذ أيام حى الدراسة وحى الظاهر ومن خلال التجمعات الحزبيه التى يتردد عليها ، وبعضهم كان يعرف أنهم من أفراد التنظيمات السرية التى تقوم بالعمليات الوطنية العنيفة بما فيها عمليات الاغتيال .. إن معظم هؤلاء الشبان انتهوا من دراستهم ولم يصلوا إلى شيء إلا أن يكونوا من صغار الموظفين .. وكان كلما تعمد لقاء واحد منهم قال له فى تواضع .. أن الله من عليه وأصبح يدير أعمالا واسعة وأنه يعرض عليه أن يشترك معه فى العمل استمرارا لصداقتهما .. ثم يقول فى حماس كأنه يلقى خطابا وطنيا .. إن الأعمال مهما اتسعت لايمكن أن تعفينا من مسئوليتنا الوطنية .. مهما أخذت الأعمال من جهدنا فلا يمكن أن تنسينا مايجرى فى البلد .. لايمكن أن تشغلنا عن كل كبيرة وصغيرة من أحداث الوطن .. إنى لايمكن أن أرضى لنفسى أن أنسى أو أتجاهل بلدى متفرغا للتجارة والتصدير والاستيراد والأعمال حتى لو انتهى بى ما أوديه من واجب نحو بلدى إلى الافلاس .. لقدولدت مفلسا وأتحمل أن أعود مفلسا ولكنى لاأتحمل أن أتجاهل بلدى أو يكون فى جيبى قرش بينما بلدى مفلسة وطنيا وسياسيا ..

مفلسة فى العدالة وفى حق الحياة الحرة الشريفه .. وبصراحه لقد اخترتك لتعمل معى لأنى لا أنسى أبدا تاريخك الوطنى ولأنى واثق أن روحك الوطنيه ومسئوليتك الوطنية لن تخفت أبدا ..

وكان يقول مثل هذا الكلام لكل من يتعمد لقاءه ثم يعرض عليه مرتبا مغريا لا يبالغ فيه حتى لايثير شكوكه .. يكفى أن يكون ضعف المرتب الحكومى المعروف .. وقد استطاع أن يجمع فى مكاتبه كثيرا من هؤلاء الموظفين وعلى مختلف الأنواع .. شبان كانوا من حزب الوفد .. أو كانوا من الإخوان المسلمين .. أو كانوا من التنظيمات السرية ، بل إنه استطاع أن يجمع حوله بعض ضباط الجيش .. إنه يعرف أن الجيش أصبح يضم أكثر من تنظيم سياسى وطنى .. ولا يستطيع أن يقدر قوة وقيمة كل تنظيم وإن كانت كلها تنظيمات تدعو إلى الثورة ، ومن الأفضل أن يكون على صلة بها جميعا دون أن يدفع أحدهما على الآخر .. ولم يكن يعرض على الضباط وظائف فى شركاته .. إن قيمتهم لديه فى وجودهم داخل الجيش .. ولكن هناك كثير من الخدمات البسيطة يقدمها لكل من يطمع فى خدمة .. كأن يخفض ثمن سيارة يبيعها له .. أو يعطيه قطعة قماش من القماش الذى يستورده هدية له .. أو يدعوه على العشاء فى السهرات المتباعدة التى كان يقيمها للشبان الوطنيين .. وكانوا كلهم على اختلاف اتجاهاتهم يتعمدون ويبذلون جهدا صادقا فى جمع المعلومات السياسية والوطنية .. لقد عرفوا

ان ارضاء صاحب العمل لا يكون إلا بامدادهم بالمعلومات الوطنية.. لأنه رجل وطنى .. ولا يشكون أبدا فى نياته أو فيما يفعل بهذه والمعلمات التى يمدونه بها .. وهم فى الوقت نفسه فى حاجة إلى ارضائه .. أكل عيش ..

وقد زودته هذه المعلومات بقوة هائلة يفرض بها شخصيته ومطالبه على السفارة البريطانية خصوصا وأن الحالة فى مصر كانت قلقه وكل ما فيها متوتر بعد أن قرر الانجليز التخلى عن الملك فاروق وتركوه دون أن يقدموا على حمايته ودون أيضا أن يخططوا لما يمكن ان يحدث لمصر من بعده..

وفى تلك الأيام التى كان يخطط فيها رفعت البيومى مجده كانت قد بدأت تلح عليه فكرة لاتريد ان تفارق ذكاؤه ..

كان يفكر فى مصيره مع برعى بك محمود الذى يقال عنه انه رجل أمريكا الأول فى مصر ..

لقد كان منصور باشا يكره برعى بك ويعاديه معاداة علنيه ويحقد عليه أو على الأصح يغار منه .. وكان يقال عنه أنه أخطر شخصية على مستقبل مصر .. ربما كان منصور باشا يقصد انه أخطر شخصية على مستقبل الانجليز فى مصر ...

ولكن لماذا يعادى هو برعى بك محمود ؟ واذا كان يعتبر رجل أمريكا فى مصر فان بين أمريكا وبريطانيا تحالفا عالميا قويا كاملا..

واذا كان بينهما خلافات أو معارك فهى مجرد معارك تنفيذية سطحية فى استغلال كل منهم لقوة وجوده .. معارك مفروضة كمعارك أكل العيش بين الأفراد .. وحتى لو اشتدت المعارك الى حد أن قضت أمريكا على الامبراطورية البريطانية أو على الأقل افقدتها سيطرتها على العالم ، فان بريطانيا حتى بعد هذا ستبقى فى تحالف مع أمريكا.. ستبقى معها فى جبهة واحدة وخط واحد ..

فلماذا لا يحاول رفعت بيومى باعتباره رجل السفارة البريطانية أن يقيم تحالفا مع برعى محمود تحقيقا لصورة التحالف بين أمريكا وبريطانيا .. حتى لو استمرت المعارك بينهما فى تحقيق الصفقات وفرض النفوذ .. ليست معارك ولكنها نوع من التنافس بين دكانين من الدكاكين السياسية والتجارية المشروعة .. وكان رفعت البيومى ودكان برعى محمود ..

وانتهز رفعت فرصة التقاؤه ببرعى فى احدى الحفلات العامة وقدم له نفسه .. واستقبله برعى فى بساطه وبعينين ثاقبتين وابتسامة أقرب الى الاستهانة كأنه يعرفه من زمن طويل .. يعرف كل شىء عنه .. ولم يهتم رفعت بما عبر عنه لقاء برعى .. لا يهم .. كل منهما يعرف عن الآخر كل شىء ..

وقد انبهر رفعت بشخصية برعى منذ التقى به .. انه ليس من جيل المرحوم منصور باشا فكرى .. انه اصغر سنا ويعتبر من قادة

الجيل الذى بدأ يؤمن بأمريكا منذ انتهاء الحرب العالمية .. وهو يبدو لا يكبر رفعت بأكثر من عشر سنوات وان كان بريق عينيه وضحكته المستمرة التى يغطى بها اسئلته وكلماته تجعله يبدو كأنه فى سن رفعت .. وبرعى يعرف عنه انه لا يخفى نوازع شبابه .. أن مغامراته مع النساء يعلنها كأنه يتباهى بها .. ثم أنه يهوى المظاهر .. لقد قبل رتبة البكويه التى منحها له القصر ، وقبل أن يكون عضوا فى مجلس النواب بنفوذ حزب لاينتمى اليه وكل ذلك نظير خدمات .. وهو فى الوقت نفسه نشيطا نشاطا كاسحا .. نشاط أمريكى لايخضع للتقاليد المحتشمه المتعالية الكسولة التى تفرضها الطبيعة الانجليزية .. ولكنه من ذكائه لا ينسب نفسه لأمريكا رغم كل ما يقال عنه .. أنه يتعمد أحيانا أن يهاجم أمريكا ويدعى أن اعجابه بها محصور فى قوتها الاقتصادية لا السياسية ..

واستطاع رفعت أن يستغل لقاءه ببرعى ويعدد لقائه به .. وكان يجد دائما مبررا لطلب أى لقاء وكان حريصا أن يردد أمامه أنه يعتبره أستاذه وأنه يتمنى أن يتلقى منه الدروس والنصائح دون أن يتعمد أن يدور بينهما حديث عن السياسة أو عن اتجاه بريطانى أو أمريكى .. الحديث كله دائما عن العمليات .. وفى عينى برعى دائما هذه النظرة الناقدة الى رفعت وهذه الابتسامة كأنه يستهين به .. وبرعى لايهتم .. يكفى أنه يستطيع أن يصل اليه ..

ووصل رفعت إلى حد أن عرض مشروعا يشترك فيه مع برعى .. أن برعى اشترى أو استولى على مساحة واسعة من الأرض تبلغ آلاف الأفدنة ليقيم عليها مشروع زراعى ضخم .. سيحتكر قوة القطن والقمح اللذان يتحكمان فى حياة مصر .. وذهب اليه رفعت وقال له أن وكيل أكبر شركة للآلات الزراعية فى بريطانيا وأنه مستعد أن يورد له كل ما يحتاجه من آلات .. وذلك نظير أن يكون شريكا معه فى المشروع واذا رفض الشركة فهو مستعد أن يسلمه الآلات بثمن مخفض جدا وهو واثق أن عدد الآلات التى يحتاج اليها المشروع ستعوضه عن قيمة التخفيض ..

وضحك برعى ضحكته التى تعبر عن الاستهانة وقال :

— لست فى حاجه إلى شريك .. ان الشركة لن تخدمك إلى مدى تصورك ..

وفهم رفعت أنه يقصد أن الشركة لن تكون فى خدمة الاغراض البريطانية التى يعرف برعى أنه يمثلها أو يعبر عنها ، ورغم ذلك أخذ يغريه بأن يشترى منه الآلات أى أن يكون متعهد امداد الشركة بكل ما تحتاجه من آلات ..

واستطاع فعلا أن يقنع برعى ..

ووضع أول أسس التحالف بينهما ..

التحالف بين بريطانيا وأمريكا ..

واستمر هذا التحالف طويلا .. تحالف ينبض بأعنف ما يصل اليه الذكاء .. ينبض بالكراهية والحقد ويكاد ينبض بالدم ..

* * *

ورفع رفعت البيومى كأس البرمنت إلى شفتيه ورشف رشفة صغيرة ثم علت شفتيه ابتسامة رقيقة مهذبة .. لقد عادت به ذكرياته فجأة الى مجدولين ..

أنه لا يستطيع أبدا أن ينسى مجدولين ..

لاشك أنها ساهمت فى بناء شخصيته التى نجح بها .. وكانت دون أن تتعمد تكاد تكون استاذته .. معلمته .. تعلمه كيف يفكر بأسلوب جديد .. الاسلوب الانجليزى العالمى .. وتعلمه كيف يعيش ويعاشر مجتمع جديد لم يكن يخطر على باله انه سيعيش فيه .. مجتمع يفرض تقاليده ويتعالى بها كأنه مجتمع يعيش فى السماء فوق البشر .. وهو يذكر انها تسللت داخل هذا المجتمع حتى وصلت به الى نادى الجزيرة الذى كان أيامها محرما على المصريين .. لا يدخله الا طبقة كبار الموظفين الانجليز وأفراد العائلة الحاكمة .. العائلة الملكية .. انه ناد أقامه الانجليز وسمحوا للعائلة الملكية بالدخول تأففا ولمجرد الاحتفاظ بالمظاهر الانجليزية .. وقد أصبح هو يدخل نادى الجزيرة كأنه من العائلة الحاكمة .. عائلة كفر البطيخ .. بل أن مجدولين

علمته فى نادي الجزيره لعبة الجولف .. وقد تشبث بلعبة الجولف وتعمد أن يبذل مجهودا كبيرا ليتعلمها .. لا لأن الرياضة فى طبيعته .. أبدا .. انه لم يكن يثير انتباهه أو يحرك احساسه شىء يسمى الرياضه .. حتى وهو صغير لم يكن يلعب أبدا مع الصغار الكرة الشراب أو عسكر وحرامية أو استغماية .. ولكن الجولف شىء آخر .. انه لعبه أولاد الذوات .. لعبة الحكام .. ولم يكن يعلم أن كثير من الصفقات الضخمة وكثير من الاتفاقات السياسية تتم خلال المشوار الطويل الذى يقطعه اللاعبون فوق حشائش وبين أشجار أرض الجولف .. وهو إلى الآن يلعب الجولف .. وفى مواعيد محددة لا تتغير أبدا كما هى عاده الانجليز .. يلعب ثلاثه أيام فى الأسبوع .. ويبدأ اللعب فى الساعة الثامنة صباحا حتى العاشرة .. وقد استفاد كثيرا من الجولف .. كثير من الأصدقاء وكثير من الأعمال والصفقات وان كان لم يتفوق أبدا كلاعب جولف ..

ومجدولين هى التى غرزت فيه ذوقه ومذاجه بالنسبة لكل تفاصيله .. وهو عندما يتجول بعينيه فى أنحاء بيته يحس بمجدولين .. ان هذا الذوق فى اختيار قطع الأثاث ونثر التحف وتعليق اللوحات هو ذوق مجدولين .. الذوق الانجليزى .. وهى نفسها التى قامت بتأثيث أول بيت كان لهما .. شقة جاردن سيتى .. ولكنه هو نفسه الذى أثث الشقه التى أصبحت له .. الشقة المطلة على النيل .. نفس الذوق بتفاصيل أوسع وأغلى .. الذوق الانجليزى .. ذوق مجدولين ..

بل أن الخدم الذين يعملون فى البيت .. كلهم على الطراز الانجليزى .. كان لا يمكن ان يضع فى بيته نظام البتلر كبير الخدم إلا إذا كان قد تأثر بمجدولين .. بل حتى أصناف الطعام التى تعودها .. كلها أصناف انجليزية .. ولم يعد يستطيع أن يعيش دون تناول شاى الساعة الخامسة ..

وقد عرف بمجدولين وسط هذا المجتمع الانجليزى المصرى .. هو الذى عرف بها وليست هى التى عرفت به .. انها انجليزية وهى إبنة وكيل بنك باركليز فهى الأهم .. وربما كان الكثيرون يحسدونه على علاقته بها رغم أنها ليست جميلة .. بل أن قيمتها لا تقاس بأنها امرأه .. انها انجليزية ابنة وكيل باركليز .. وربما لم يكن البنات الانجليزيات يحسدن مجدولين عليه .. فهو ليس وسيما وقصير القامة ولا يمتاز بمظهر الفحولة والاثارة الذى يمتاز به كثير من الرجال المصريين .. انه مجرد شاب عادى من مئات الشباب الذين يقدمون انفسهم خدما للانجليز .. وقد كانت مجدولين تعطيه الكثير .. كانت معه كل يوم تقريبا .. وكانت تحمل مسئولية بيته .. وكانت تساعده فى كل عمل تستطيع أن تساعده فيه .. ولكنها كانت تمتاز بأنها واقعية عملية .. لقد وضعت خطاطا محدده لعلاقته بها لا تخرج عنها .. لا تعطيه أكثر ولا أقل .. وهى كما عودته لم تكن تثير موضوع الزواج .. كأنها لا تريده .. ولكنها تتركه يأمل فى زواجها وتتركه الفكره تنطلق كلما راودته .. أى أنها ليست فتاة عاطفية تهور وراء

عواطفها .. أنها لا تحب هذا الحب الذى يسمع عنه .. ولكنها واقعية .. تعطى لأنها تريد أن تأخذ .. انه هو أيضا لا يحب هذا الحب .. انه أيضا صاحب فكر واقعى .. يعطى لأنه يأخذ .. وربما كانت هذه الوحدة فى الفكر التى جمعت بينهما كل هذه السنوات .. الى أن قتل منصور باشا فكرى ..

وقرر رفعت البيومى أن يعدل عن كل ما يشبهه بمنصور باشا .. أن منصور باشا كان يجاهر بأنه انجليزى فيجب أن يخفى هو كل مظاهر صداقته بالانجليز .. ومنصور باشا كان متزوجا من انجليزية .. أن الزواج من انجليزيات يبرز ويؤكد الشخصية الانجليزية على الرجل المصرى .. ورفعت لن يتزوج من انجليزية .. لن يتزوج من مجدولين .. وعدل نهائيا عن التفكير فى الزواج بها .. بل أنه يجب أن يبتعد عن شخصيتها .. الشخصية الانجليزية .. واذا كانت علاقته بها معروفة فى المجتمع العالى فان الكلام يمكن أن يصل الى الطبقة الشعبية .. ولن يقال أنه يحبها أو أنها تحبه بل سيقال أنه خائن يسعى إلى الانجليز ويستغله الانجليز .. أن مجدولين هى الوسام الانجليزى الذى يضعه على صدره ويفضحه أمام الناس .. ويجب أن يخلع هذا الوسام .. وبدأ يتباعد فعلا عن مجدولين .. وهو تباعد لم يكلفه شيئا فقد استقبلت مجدولين تباعده فى برود .. وقد قال لها يوما :

— أن منصور باشا قتل لأنه كان معروفا بأنه أقرب أصدقاء الانجليز ..

وقالت فى بساطة :

ـ أعرف .. وهو ما أثار لندن ..

وقال رفعت وهو يبتسم كأنه يتحسر :

ـ وكان معروفا أنه متزوج من انجليزية .. أن الناس فى مصر يعتبرون الزواج كأنه قضية وطنية ..

وقالت مجدولين ضاحكة :

ـ لا تتزوج من انجليزية .. حتى لا تقتل .. قد يقتلك المصريون أو الانجليز .. فالانجليز أيضا يعتبرون الزواج قضيه وطنية ..

وبدأت مجدولين تتباعد هى الأخرى .. فى برود .. ولكن صداقتها لم تنقطع . أنهما يتحدثان فى التليفون بين كل وقت وآخر . وترسل له الدعوات بانتظام كما تعودت وأن كان قد أصبح يدقق فى اختيار الدعوة التى يلبيها .. بل أنه كان يعانى أحيانا الحرمان .. أن مجدولين هى المرأة الوحيده التى دخلت حياته حتى اليوم .. دخلت فراشه ودخل فى جسدها .. فكان يدعوها إلى البيت فى ليالى متباعدة .. وتلبى الدعوة فى بساطة .. انها تعلم انه محروم ويريد التخفيف من حرمانه وهى أيضا محرومة وان كان حرمانها لا يلح عليها كما يلح عليه .. انها أقوى فى برودها .. وما بينهما صداقة تحتمل كل شىء .. وهى صداقة تعيش حتى اليوم .. وكلما سافر إلى لندن التقى بها .. لقد أصبحت عجوزا ولم تتزوج بعد .. وهو

حسن حتى اليوم كلما التقى بها أنها استاذته .. صاحبة الفضل فى تكوين شخصيته .. ويستفيد من دروسها وذوقها حتى فى شراء قطعة جديدة من لندن يضعها فى بيته ..

وأيامها . وفى أوقات فراغه . بدأ يفكر . لماذا يكتفى بمجدولين ويحصر نفسه فى تعوده على جسدها .. لماذا لا ينطلق فى اشباع فحولته . لقد وصل إلى مركز وثراء يكفيه ليصل الى كثير من النساء حتى لو كان من هذا النوع من النساء .. ان برعى محمود معروف بمغامراته النسائية ورغم ذلك فمغامراته لا تؤثر فى مركزه أو فى سمعته. وربما لأنه يؤكد وطنيته بحصر مغامراته بين النساء المصريات .. فلماذا لا يغار هو الأخر ليحرر نفسه من الحرمان ..

وكان لديه موظف فى الشركة قريبا فى عمله منه .. لاشك أنه كان موظفا كفؤ .. ولكن عيبه أنه كان يقدم زوجته فى كل مناسبة وأحيانا فى مناسبات لا تفرض عليه تقديمها .. ولا شك أن زوجته خيرية كانت مثيره وكانت تتباهى بأنها مثيرة وتبدو كأنها تتعمد إثارة كل الرجال .. لقد كانت تتعمد اثارته هو شخصيا فى كل مناسبة يلتقيان فيها .. وكان يترفع على هذه الاثارة ويتعمد الابتعاد عنها وهو يبدى سخطه وقرفه .. ولكن لماذا يتعالى .. لماذا لايحاول ويجرب .. وفى حفل من حفلات المناسبات التى تقيمها الشركة تقدمت مع زوجها لتحييه وهمت أن تبتعد بسرعة بعد أن كانت

قد يئست منه ولكنه استوقفها وأخذ يتحدث معها ومع زوجها .. وشمل الحديث آخر ما ظهر من قطع الأثاث فى السوق وقال ضاحكا :

— انى أدعوك لمشاهده بيتى حتى تعرفى ذوق ..

وحدد لها موعدا .. وكان يحادثها وبجانبها زوجها .. وكان يشترك فى الحديث وسمع الدعوة وسمع تحديد الموعد ..

وكان ينتظرها فى بيته هى وزوجها وهو يخطط لتحديد موعد آخر لها وحدها .. يجب أن يبدأ بريئا حتى يتأكد من أنه يستطيع أن يخرج عن براءته ..

واذا بها تأتى وحدها ..

وسأل فى دهشة :

— أين زوجك ؟

وقالت ضاحكه :

— لقد فهمنا ان الدعوة لى وحدى .. ثم أنه لا يفهم فى قطع الأثاث ..

وأخذها ليلتها فى فراشه .. أول امرأه يأخذها بعد مجدولين .. والفارق كبير .. ان المصرية تختلف فى كل خلجة عن الانجليزيه .. وأشهى وألذ ..

ولم يحس بحرج عندما التقى بزوجها فى مكتب الشركة فى اليوم التالى .. وكان الزوج هو الذى طلب مقابلته ليعرض موضوعا تافها

لم يتعود أن يعرض مثله .. ربما أصبح هذا الزوج صاحب حق عليه .. وهو فعلا أصبح أكثر جرأة فى التحدث اليه وان كان لم يشر بكلمة من قريب أو بعيد تشير بأنه ترك زوجته تزوره فى الليلة السابقة .. لا يهم .. يجب أن يعود نفسه على التعامل مع هذه الشخصيات .. مثل هؤلاء الأزواج ..

وقد تعود فعلا .. بل تزاحمت علاقته ومغامراته كأنه دخل عالما جديدا كان خافيا عنه .. عالم التحرر من الحرمان .. وعرف عنه أنه عين كثير من النساء والبنات فى مكاتب الشركة .. كل من عينها مرت به .. بل أنه أصبح خبيرا فى معاملات الزوجات فى المجتمع .. سواء المجتمع الراقى الذى أصبح يضمه أو المجتمع الشعبى الذى لايزال متصلا به .. أن له نظرة ثاقبة يستطيع أن يفرق بها بين الزوجه التى يمكن الوصول اليها فيحاول الوصول ، والزوجة لايمكن ان يصل اليها أحد فلا يحاول بل يحتفظ أمامها بالشخصية الهادئة البريئة المتزمتة فى الحفاظ على الشرف فيكسب تقديرها له ..

لاشك أنه أصبح متفوقا على برعى بك محمود فى هذا العالم الواسع ..

* * *

إلى أن فوجىء رفعت ذات صباح بخبر ثورة ٢٣ يوليه ..

لقد كان يعرف أن مصر فى حالة غليان ولكن لم يكن ينتظر مثل هذه الثورة ولا فى هذا التاريخ .. كان كل ما ينتظره ثورة

شوارع تهدد الملك فاروق حتى يفيق لنفسه أو تطيح به وتضع مكانه ملكا آخر .. كما حدث فى التاريخ القريب .. وهكذا كان يعتقد الانجليز وما كانوا يسعون إلى تحقيقه . بل أن هذه الثورة رغم أنها لم تكن مجرد ثورة شوارع قد بدأت مما كان يتصوره الانجليز .. عزلت فاروق ووضعت مكانه ابنه فى رعاية مجلس وصاية ..

وكان يومها محتارا .. واتصل ببعض من يعرفهم ليتزود بالمعلومات ، ثم اتصل ببرعى بك محمود فى نفس الصباح وقال وهو يضغط على صوته حتى لا يرتعش :

— هل علمت ..

وسمع صوت برعى يقول فى فرحة وكأنه يزغرد :

— لم تكن مفاجأه .. سنتحدث فيما بعد ..

وألقى برعى بسماعة التليفون فى وجهه ، ورفعت يزداد حيرة :

ماذا يعنى برعى عندما قال أنها لم تكن مفاجأه ؟ !

هل كان يعرف عن هذه الثورة قبل أن تقوم ؟ !

هل كان الأمريكان يعرفون ؟ !

هل هى ثورة لحساب أمريكا ؟ !

(٥)

ظل رفعت البيومى حائرا فى تحديد مفهومه للثورة وتحديد وضعه منها شهورا طويلة .. وكان أهم ما يشغله هو تحديد موقف أمريكا منها .. هل كانت أمريكا تعلم مقدما بهذه الثورة واشتركت فى إعدادها بطرقها الخاصة .. ولم تكن أمريكا هى التى تهمه بل كان ما يهمه أولا هو صديقه اللدود برعى بك محمود رجل أمريكا فى مصر .. ولو كانت أمريكا هى التى صنعت هذه الثوره فان برعى يصبح الحاكم بأمره ويستطيع أن يطيح به ويخرب بيته بهزه من أصبعه .. يستطيع أن يطرده كما تحاول أمريكا أن تطرد بريطانيا من مصر .. المعلومات التى تصل تؤكد أن برعى فى حالة تقارب أوسع مع رجال الثوره .. بل انه سمع أنه ومنذ الأسابيع الأولى بدأ يعد لصفقة ضخمة لاستيراد القمح من أمريكا ولا يمكن أن تتم هذه الصفقة الا اذا كان